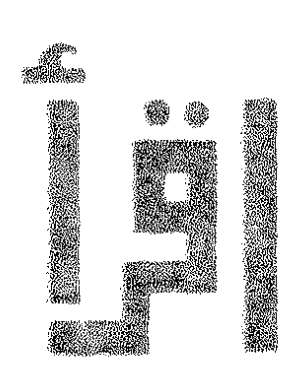
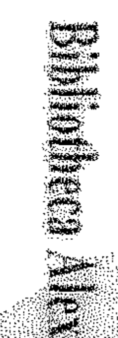
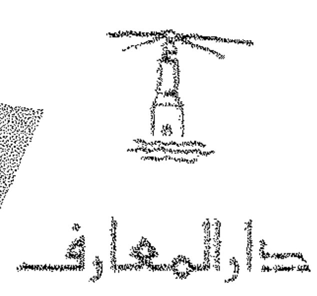


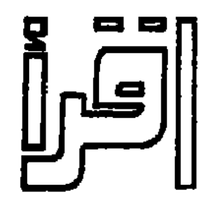
أحمد فؤاد الأهوانى

ب والكراهية



دار المعارف



[٨٠]

الحب والكراهية

أحمد فؤاد الأهوانى

الحب والكراهية

الطبعة الثالثة



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

من أعماق النفس

تفتحت عين الوليد على الحياة ، ولكنه لم يدرك منها شيئاً ، ولم يدر أحد ما كان يجول فى خاطره ، إلا ما ارتسم على وجهه من ابتسامات تنبئ عن اللذة والسرور .

ولا تستطيع ذاكرته أن تذهب به فى أغوار الماضى قبل السابعة من العمر . وهو لا يذكر منذ ذلك الوقت حتى العاشرة إلا وقفات وأحداثا تهز المشاعر وتختلف عن المألوف .

إنه قطعة من العالم لا يميز بين نفسه ، وبين ما فيه من أحياء وأشياء .

فلما أخذ فى التمييز ، راعه هذا الخلاف بين نفسه وبين الناس . إنه يريد لهم الخير ، ويبذل لهم من ذات نفسه ، ولا يضن عليهم بما يؤثر ، ومع ذلك فكم لقى من الناس وشرورهم .

ترى ما السر الأعظم فى تحريك البشر إلى ما يعملون ؟

إنه الحب والكراهية .

قرأ ذلك الرأى مراراً ، ولكنه لم يعلق بذهنه ، حتى كان يستمع إلى أستاذ كبير أجنبي فى إحدى محاضراته يقول : « لو فتشت عن السر الذى يدفع المفكرين والفلاسفة إلى إعلان مذاهبهم الجديدة ، ويحرك فيهم الهمة إلى تصويرها ، لوجدت فى حياتهم شخصاً معيناً يكرهونه ، فهذا أرسطو كان يبغض أفلاطون ، وينتقص من مذهبه ، ولا ينفك ينتقد نظريته فى المُثُل فى كل مناسبة ، مع أنه كان أستاذه ، وأرسطو هو القائل « أحب أفلاطون وأحب الحق ولكن حبى للحق أعظم » . واعتمد فلاسفة العصر الحديث فى مذاهبهم على كره أرسطو والطعن على فلسفته .

عندئذ تنبه عقل صاحبنا ، والتفت إلى ذلك المعنى المحرك لأعمال الناس فى حياتهم ، وهو الحب والبغض .

إنهما سر الائتلاف ، والباعث على الاختلاف .

بل هما القانون الذى تسير عليه الأمم والشعوب .

ألم تر إلى هتلر كيف جمع كلمة الشعب الألمانى على كراهية اليهود فشن عليهم الحرب الضروس !

وكلما تقدمت به السن ، ازداد إيماناً بقوة هذين الباعثين ،

وأثرهما فى سلوك الأفراد والجماعات .

وهل خلا بشر من الحب والكراهية ؟

ما هو السر فى ذلك ؟ لقد فكر القدماء والمحدثون ، فصاغ اليونان أساطير تعلل نشأة الحب ، وتأمل الفلاسفة فخرجوا بمذاهب تفسر هذه الظاهرة ، وقال علماء النفس وعلماء الحياة كلمة العلم الحديث .

أساطير القدماء لا تخلو من طرافة ، وتعليل المحدثين عندنا أدنى إلى الصواب

٨

الحب الأفلاطونى

إنه الحب الذى يسمو على مطالب الحس ، ولا تدنسه شهوات الأبدان .

ونحن لا نزال نسمى هذا الضرب من الحب الشريف أفلاطونياً ، إجلالا لذكرى ذلك الفيلسوف العظيم صاحب الأكاديمية ، ومعلم المعلم الأول .

أين تكلم عن حقيقة الحب وكشف الستار عن عجائبه ؟

نجد ذلك فى المحاورة المشهورة المعروفة باسم « المأدبة » حيث اجتمع القوم ومعهم سقراط فى بيت أجاثون يتناولون طعام العشاء ، ثم دار الحديث عن الحب . وتناول كل منهم الموضوع من جانب حتى جاء دور أرستوفان فقال ما فحواه :

سوف أطرق باب الكلام فى هذا الموضوع على غير ما تكلم فيه بوزانياس أو أركسيماخوس . وإنى لأعتقد أن البشر لم يقدروا بعد ما للحب من منزلة . ولو فهموا قدره لأقاموا فى تمجيده

المعابد والهياكل .

سأبين لكم قوة الحب ، وعليكم أن تعلموا ذلك للناس .

لم تكن الطبيعة البشرية فى أصل فطرتها كما هى عليه اليوم . ولم يكن هناك جنسان كما نرى الآن ، بل ثلاثة أجناس : الرجل ، والمرأة ، والخنثى المركب منهما . كان هذا المركب من الرجل والمرأة موجوداً حقيقياً ، ولكنه اختفى اليوم .

وكان الرجل الأول كروى الشكل ، ذا أربع أيد وأربع أقدام ، ورأس واحدة ذات وجهين ينظر بهما فى اتجاهين ، وله كذلك أربع آذان . وكان فى استطاعته أن يمشى منتصباً كما يمشى الآن ، وإلى الأمام وإلى الخلف كما يريد .

كانت الأجناس ثلاثة لأن الشمس والقمر والأرض ثلاثة فى العدد . فالرجل ابن الشمس ، والمرأة ابنة الأرض ، والرجل المرأة ابن القمر . وكانوا ذوى بأس شديد ، وقوة عظيمة ، حتى لقد اعتدوا على الآلهة . فاجتمع الآلهة فى السماء ، وتشاوروا فى أمرهم ، واستقر الرأى على إبادة البشر بأن يسلطوا عليهم الرعد . ولكن من يعبد الآلهة ويسبح بحمدها ؟

واهتدى زيوس كبير الآلهة آخر الأمر إلى طريقة تحد من

بأسهم وتهذب أخلاقهم : يقطع البشر أنصافاً ، فتقل قوتهم ويزيد عددهم .

وحقت كلمته عليهم ، فقطع كل واحد نصفين كما تقطع التفاحة . وأمر أبولون أن يواسى جراحهم ، ويصوغ هيئتهم على ما هو مشاهد الآن من هيئة البشر . فلما تم الانقسام ، أضحى كل نصف يشتاق إلى نصفه ، فالرجل يشتاق إلى رجل آخر يكمله . وإذا مات نصف ، بحث النصف الآخر عن شريك له ، رجلا كان أم امرأة ، ليتعلق به .

ولما رأى زيوس أن سبيلهم إلى الفناء ، أنزل رحمته عليهم ، وجعل الذكور تتحد بالإناث حتى يتولد منهم نسل يحفظ الجنس البشرى .

وهكذا انحدرت الطبائع الإنسانية . أما الرجال من أنصاف الرجال فإنهم يشتاقون إلى الرجل . وكذلك النساء من أنصاف النساء فإنهن لا يطلبن الرجال . أما الرجال من أنصاف المخنثين ، ذلك الصنف المركب من الرجل والمرأة ، فإنهم يشتاقون إلى المرأة .

هذه هى أسطورة الخلق التى تفسر الحب والكراهية ، وقد

تسربت هذه الأسطورة فى الأدب العربى . وقال بها بعض أئمتهم مما نحدثك عنه بعد قليل .

ولم يكن أفلاطون يؤمن بهذه الأسطورة ، وإنما حكاها كما حكى الكثير من أساطير اليونان .

وحقيقة مذهبه فى الحب . الترفع عن شوائب المادة ، والسمو إلى نورانية الروح . فالحب شوق يدفع إلى الحصول على المعرفة والخير والجمال . ويبدأ الإنسان بحب الأشكال الجميلة ، ثم يرتقى إلى حب النفوس ، ثم إلى حب ثمرة النفس وبخاصة القوانين الإنسانية ، وينتهى فى آخر الأمر إلى حب المعرفة لذاتها .

وهكذا نتدرج فى الرقى حتى نبلغ مثال الجمال ، ومثال الحق ، ومثال الخير .

فالحب يصعد من الأجسام المحسوسة الفانية إلى الجمال المطلق الباقى ، وهو مطلب النفس الخالدة ؛ التى كانت تعيش فى عالم المثل قبل اتصالها بالجسد . والمحب الحقيقى الكامل ، وهو صاحب الحب الأفلاطونى ، يزدرى الجمال الزائل ، ويتعلق بالجمال الدائم ، جمال الروح .

وقد صور أفلاطون فى الجمهورية حواراً بين سقراط وغلوكون ، يوضح مذهبه جاء فيه :

سقراط : أيمكنك أن تذكر لذة أعظم وأقوى مما يصحب التمتع بلذة الحب ؟

غلوكون : لا يمكننى ذلك ، ولا يوجد من تجاوز حدود العقل فيحاول ذلك .

سقراط : أوليس من طبع الحب المشروع الرغبة فى الجميل المتزن بطبع رصين متزن ؟

غلوكون : مؤكد أنه كذلك .

سقراط : فلا يجب أن يلامس الحب المشروع شىء من الجنون والدعارة .

غلوكون : يجب ألا يلامسه جنون ولا دعارة .

سقراط : فاللذة التى نحن بصددها لا تدانى الحب ، ولا يأتى المحب وحبيبه الذى يبادله الود المستقيم شيئاً من هذا النوع .

غلوكون : حقاً إنه لا يجوز أن يأتياه يا سقراط .

فى الأدب العربى

لا تزال أقوال العرب جارية على كل لسان ، نقرؤها فى أمهات الكتب وعيون الأدب ، ونستشهد بما ذكر شعراؤهم ، عن الحب والبغض ، وما يتبعهما من أحوال . ولهم فى ذلك نظرية مشهورة ترجع إلى ائتلاف أو اختلاف الأرواح قبل اتصالها بالجسد . وليس المسلمون هم الذين ابتكروا هذه النظرية فأصولها تمتد كما ذكرنا إلى الحكماء الأقدمين .

ذكر الراغب الأصبهانى فى محاضراته الأسباب المولدة للعشق فقال : « زعم بعض أن الله تعالى خلق الأرواح كلها كهيئة كرة ثم قطعها أنصافاً فجعل فى كل جسد نصفاً ، فكل جسد لقى الجسد الذى فيه نصفه حصل بينهما عشق . وتتفاوت حالها فى القوة والضعف على حسب رقة الطبائع » .

وزعم بعضهم أن الصداقة على ثلاثة أنواع : إما لاتفاق الأرواح فيكون لاتفاق الشمس والقمر فى المولدين فى برج

واحد ، فلا يجد أحدهما بدآ من حب صاحبه . وإما لمتعة تحصل فتولد ذلك . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها » . وإما لألفة تجتمع مواد الحرص إليها ولهذا قال الصمد المرى :

وما العشق إلا النار توقد فى الحشا

وتذكى إن انضمت عليه الجوانح

قال شهاب الدين أحمد النويرى صاحب نهاية الأرب : «وذكر بعض الحكماء أنه لا يقع العشق إلا لمجانس ، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل ، واستدل بقول النبى صلى الله عليه وسلم « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، وقد كانت الأرواح موجودة قبل الأجسام ، فمال الجنس إلى الجنس ، فلما افترقت الأجساد بقى فى كل نفس حب ما كان مقارناً لها . فإذا شاهدت النفس من النفس نوع موافقة مالت إليها ، ظانة أنها هى التى كانت قرينتها ، فإن كان التشاكل فى المعانى كانت صداقة ومودة ، وإن كان فى معنى يتعلق بالصورة كان عشقاً . وإنما يوجد الملل والإعراض

من بعض الناس لأن التجربة أبانت ارتفاع المجانسة والمناسبة .
وأنشدوا على ذلك :

وقائل : كيف تهاجرتما ؟ فقلت قولا فيه إنصاف
لم يك من شكلي ففارقته والناس أشكال وألاف

نحن إذن أمام نظريتين : تلك التى ذكرها الراغب الأصبهانى ، وتلك التى ذكرها النويرى . فالأولى تفترض أن كل شخص فيه نصف روح فقط ، إلى أن يلتقى بشخص آخر يجد فيه نصفه الآخر . وهى نظرية ظاهرة الخرافة يبدو فيها خيال البدائيين أكثر من علم المحققين . وقد اعترض الإمام أبو محمد على بن حزم فى كتابه « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » على هذه النظرية فى الحب ، فقال : « وقد اختلف الناس فى ماهيته ، وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع . لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة « الأرواح أكر مقسومة » .

أما محمد بن داود الذى يشير إليه ، فهو : أبو بكر محمد بن أبى سليمان داود الأصبهانى الظاهرى ، ابن صاحب المذهب

الظاهرى ، ولد فى بغداد وعاش فيها فى القرن الثالث الهجرى . وكان من المحبين ، يروى عنه أنه اعتاد دخول الجامع من باب الوراقين ، فهجره أياماً ، وسئل فى ذلك فقال : « دخلت يوماً فرأيت متحابين يتحادثان فتفرقا مذ رأيانى . فآليت ألا أدخل مكاناً فرقت فيه بين محبين » .

وهو صاحب كتاب « الزهرة » فى الحب ، لأن الزهرة نجم يدلون به على الحب ، ولأنها تهيئ العشق والوله والهيمان والرقة ، وتبعث فى النفس التلذذ بالنظر والمؤانسة بالحديث .

والنظرية الثانية تفترض وجود الأرواح قبل الأجسام ، فيقع الحب لاتفاق الأرواح ، والبغض لتنافرها .

ويمضى ابن حزم مع هذه النظرية إلى نهايتها فيجعل الحب ائتلاف الأرواح الموجودة قبل الأجسام على سبيل التجانس ، وجعل علة الائتلاف من الله سبحانه .

« فالحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، على سبيل مناسبة قواها فى مقر عالمها العلوى ، ومجاورتها فى هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال . والشكل

دائماً يستدعى شكله ، والمثل إلى مثله ساكن . وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد . والتنافر فى الأضداد ، والموافقة فى الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا . فكيف بالنفس وعالمها الصافى الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل ، وسنخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار . كل ذلك معلوم بالحضرة فى أحوال تعرف الانسان فيسكن إليها . والله عز وجل يقول (هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ليسكن إليها) . فجعل علة السكون أنها منه . ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص عن الصورة . ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ، ويعلم فضل غيره ، ولا يجد محيداً لقلبه عنه . ولو كان للموافقة فى الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه. فعلمنا أنه شىء فى ذات النفس » .

هذه هى نظرية ابن حزم فى الحب ، لا يلتمس له سبباً من الظروف المحيطة بنا ، بل يرجع به إلى طبيعة النفوس فى أصل عنصرها . وهذا النوع من الحب — إذا وقع — « فهو العشق الصحيح الممكن من النفس ، فهى التى لا فناء

لها إلا الموت » .

أما المحبة التى تقع لسبب من الأسباب ، فإنها تفنى بفناء سبيلها ، ودليله على ذلك أن المحبة ضروب ، فأفضلها محبة المتحابين فى الله عز وجل ، إما لاجتهاد فى العمل ، وإما لاتفاق فى أصل النحلة والمذاهب ، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر يضعها المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع فى جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة لبلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس . وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ، وزائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فاترة ببعدها .

ويؤثر ابن حزم الاعتقاد بأن الحب استحسان روحانى ، وامتزاج نفسانى ، وأنه علة نفسه . وفى ذلك يقول :

إذا ما وجدنا الشئ علة نفسه فذاك وجود ليس يفنى على الأبد

أما الأسباب التى ذكرها داعية إلى المحبة . فمرجعها إلى أن النفس مكتنفة الجهات ببعض الأغراض السائرة ، والحجب

المحيطة بها من الطبائع الأرضية . فلا تحس بالجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها حيث هى . ولو تخلصت لاستويا فى الاتصال والمحبة . ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة طالبة له ، قاصدة إليه ، باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس أو الحديد .

فالأصل هو الامتزاج النفسانى . ولكن المتحابين لا يتحابان إلا وبينهمامشاكلة واتفاق فى الصفات الطبيعية وإن قل . وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة ، وتأكدت المودة، ولهذا ما اغتم بقراط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه فقيل له فى ذلك فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه . وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذى كان يتولى إيصال كلامه إليه : أيها الملك قد استبان لك أنه برىء ، فما لك وله ؟ فقال الملك : لعمرى ما لى إليه سبيل غير أنى أجد لنفسى استثقالا لا أدرى ما هو . فأدى ذلك إلى أفلاطون ، فقال : فاحتجت أن أفتش فى فى نفسى وأخلاقى شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها ،

فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميزت هذا الطبع فىّ ، فما هو إلا أن حركت هذه الموافقة ، وقابلت نفسه بهذا الطبع الذى بنفسه ، فأمر بإطلاقى ، وقال لوزيره : قد انحل كل ما أجد فى نفسى له .

فالاتفاق فى الأخلاق والمشاكلة فى الطباع ، مما يساعد على الحب . أما الحب فهو الامتزاج الروحانى ، وهو علة نفسه. « وهذا بعينه موجود فى البغضة . ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ولا علة ، ويستثقل بعضهما بعضاً بلا سبب » .

أما العلة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة الظاهرة ، فهى أن النفس حسنة تولع بكل شىء حسن ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها ، اتصلت ، وصحت المحبة الحقيقية . وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة . وإن للصور لتوصيلا عجيباً بين أجزاء النفوس النائية .

ويحلل الغزالى فى إحياء علوم الدين الحب تحليلا دقيقاً ، مع التقسيم والتبويب على عادته فى الترتيب .

وعنده أن المحبة والكراهية تستند إلى عدة أصول عامة نفسانية :

الأول — أنه لا محبة ولا كراهية إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد .

الثانى — أن ما يوافق طبع المدرك ويلائمه يلذه ، وما ينافيه وينافره يؤلمه ، فكل ما فى إدراكه لذة وراحة ، فهو محبوب عند المدرك ، وما فى إدراكه ألم فهو مبغض عند المدرك . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشىء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقاً . والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوى سمى مقتاً .

والثالث — اختلاف المحبوبات باختلاف الحواس والإدراك ، فلذة العين فى الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة ، ولذة الأذن فى النغمات الطيبة الموزونة .

والرابع — أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرق ثمرة سوء الخلق ، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر .

ثم جعل الحب خمسة أقسام ترجع إلى خمسة أسباب وهى :

١) حب الإنسان وجود نفسه وكماله وبقائه ؛ إذ لا يخفى أن الإنسان يحب نفسه . ومعنى ذلك أن فى طبعه ميلا إلى دوام وجوده ، وينفر من العدم والهلاك ، ويكره الموت والقتل . فالمحبوب الأول للإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله ، ثم ولده ، وعشيرته ، وأصدقاؤه . فالأعضاء محبوبة ، وسلامتها مطلوبة ، لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها . وكذلك الإنسان يحب المال والولد والأهل ، لا لإعيانها بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها . فهو يحب الولد لأنه يخلفه فى الوجود بعد عدمه ، فيكون فى بقاء نسله نوع بقاء له .

٢) حب الإنسان من أحسن إليه فيما يرجع إليه فى دوام وجوده ؛ ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه . فالإنسان عبد الإحسان . وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذى لا قرابة بينه ولا علاقة .

٣) حب الإنسان من كان محسناً فى نفسه إلى الناس

ولولم يكن محسناً إليه . وهذا هو الحب الحقيق . لأن كل من أحب المحسن لإحسانه ، فما أحب ذاته بل أحب إحسانه . وهنا يحب الإنسان الشيء لذاته ، لا لحظ يناله منه .

٤) حب الإنسان كل ما هو جميل سواء فى الصور الظاهرة أو الباطنة . فإن كل جمال محبوب إذ فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها. والحسن والجمال موجودان فى غير المحسوسات ، إذ يقال هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وهذه أخلاق جميلة . وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة ، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من يعرف .

٥) حب الإنسان لمن بينه وبينه مناسبة خفية فى الباطن . إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن لمجرد تناسب الأرواح ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « فما تعارف منها ائتلف ، وما تنافر منها اختلف » .

فى ضوء التحليل النفسانى

تدعو نظرية التحليل النفسانى إلى الذهن اسم ذلك الطبيب الذى أعلنها وصورها ودافع عنها دفاعاً مجيداً على الرغم من الانتقادات العنيفة الموجهة إليها ، نعنى سيجموند فرويد ، وهى نظرية جد حديثة ، إذ أعلنها صاحبها لأول مرة عام ١٩٠٠ أى فى فجر القرن العشرين ، وظل منذ ذلك التاريخ يكتب ، ويؤلف ، ويعدل من آرائه السابقة التى يتضح له فسادها أو كما قال فى محاضرته عام ١٩٣٠ « كلما تقدمنا فى دراسة المظاهر النفسية اتضح لنا ما فى النفس من كنوز ، وما فيها من تعقيد . ويخيل إلينا فى أول الأمر أن بعض القوانين البسيطة مطابقة للحقيقة ، ولكن يتضح فيما بعد نقصها ، لهذا يحسن تعديلها ، والوصول بها على الدوام إلى الكمال » .

وهكذا أنفق طبيب فينا حياته ينقب ويبحث ويؤلف ، ومات ولكن نظريته لم تمت ، فلها طرافتها على الرغم من المآخذ

الكثيرة التى توجه إليها ، سواء من تلامذته الذين خرجوا عليه وأسسوا مدارس جديدة مثل أدلرويونج ، أم من غير المشتغلين بالتحليل النفسانى .

مهما يكن من شىء فمدرسة التحليل النفسانى لها مكانها فى علم النفس ، إلى جانب غيرها من المدارس ، وأهم ما تمتاز به القول بوجود أحداث ماضية مركوزة فى « اللاشعور » ، والتحليل هو الطريقة التى توصلنا إلى أغوار اللاشعور ومعرفة ماضيه . فإذا سلمنا بانقسام الحياة النفسية إلى الشعور واللاشعور كما يذهب إليه فرويد ومدرسته ، فعلينا أن نتخذ الوسائل الكفيلة بكشف ما يوجد فى اللاشعور .

وعلى هذا الأساس ، أى افتراض اللاشعور ، تفسر مدرسة التحليل النفسانى جميع أعمال المرء الظاهرة ، فى حياته اليومية ، وفى المخترعات والعلوم والفنون والآداب ، بل كل شىء فى الحياة .

والأمر كذلك بطبيعة الحال فى الحب والكراهية . فالأشياء التى نحبها وتلك التى نبغضها ، ينبغى أن نلتمس أسبابها فى أغوار اللاشعور الذى يعرفه فرويد بما يأتى : « إننا نعنى

باللاشعور كل عملية نفسية آثارها الظاهرة تدل على وجودها الباطن ، فى الوقت الذى نجهل كل شىء عن هذا الشىء الكامن بالرغم من وجوده فى داخل أنفسنا » .

والعجيب فى رأى فرويد القول بوجود أشياء باطنة تعمل فى داخل النفس وتحرك صاحبها ، وفى الوقت نفسه يجهلها ولا يشعر بها . وقد اضطر فرويد إلى افتراض القول باللاشعور لحاجته إلى تعليل الأحداث الإنسانية . وهو فى ذلك ينادى بنظرية تعد أساساً من أسس مذهبه ، وهى أن كل ظاهرة نفسية لا بد لها من سبب ، فهناك حتمية نفسية ، كما هو الحال فى سائر العلوم ، أما جهلنا بالأسباب فدليل على العجز والنقص فى العلم . ونضرب مثالا ننقله عن فرويد يوضح وظيفة اللاشعور . يقول : إن خطيبة نسيت خاتم الخطوبة على حوض الحمام بعد أن غسلت يديها ، ثم بحثت عنه بعد ذلك فى كل مكان فلم تعثر عليه ، فظاهرة النسيان غير المقصود فى نظر الخطيبة ، علتها لذلك رفضها الزواج ، وبغضها له فى باطن نفسها ، ولما كان الخاتم رمز الخطوبة وعنوان الزواج فنسيانها له يشبع رغبتها الباطنة التى لا تشعر بها فى الانصراف

عن الزواج .

فهناك الشعور واللاشعور ، وبينهما صراع عجيب ، كثيراً ما يؤدى إلى الاضطرابات العصبية ، والدليل على وجود اللاشعور ، هو فلتات اللسان ، والأخطاء غير المقصودة ، والأمور التى ننساها ، والأحلام .

وبين الشعور واللاشعور ما يسميه فرويد « الرقيب » الذى ينشأ تحت تأثير المجتمع وما يفرضه من عادات وتقاليد خلقية ودينية واجتماعية ، وكثيراً ما تكون مخالفة لرغبات الشخص الذاتية ، كما ينشأ أيضاً من معارضة الميل الذاتى للميل الجنسى . ويتكون الرقيب عادة عند سن الخامسة ، وكلما كبر المرء فى السن ، أصبح الرقيب قوياً بما يضاف إليه من معان خلقية كالخجل والاشمئزاز والعفة والشفقة . . . وما إلى ذلك . فكل رغبة توجد فى النفس ولا يستطيع صاحبها أن يحققها لمعارضتها المجتمع الذى يعيش فيه ، « يكبتها » فى « اللاشعور » ، ويحجزها الرقيب وراءه ، ولكنها تتسرب بين حين وآخر من الرقيب فى صور رمزية غير صريحة ، كما يحدث فى الأحلام مثلا ، أو الأمراض النفسية .

ومن هنا كان «كبت» الرغبات النفسية أساساً هاماً فى نظرية فرويد . مثال ذلك : فتاة أصيبت بشلل هستيرى فى رجليها ، واتضح من التحليل النفسانى أنها كانت تقوم بتمريض والدها الشيخ خلال مرضه الطويل بكل أمانة وإخلاص ، فكانت تسند والدها وترفعه معتمدة كل الاعتماد على رجليها . ثم أحبت شاباً اتفقت معه على الزواج لولا مرض والدها . ونشأت فى نفسها الرغبة فى التخلص من والدها ، ولكن إخلاصها له جعلها تبعد من نفسها هذه الرغبة القوية . غير أن الرغبة لم تمت ، إذ ذهبت إلى اللاشعور مكبوتة ، وأصبحت تحركها ، فأحدثت ذلك الشلل الوهمى الذى يجعلها تتخلص من خدمة والدها .

وأهم ما يعنى فرويد بتأكيده هو ثلاثة أمور : الكبت ، والرغبة الجنسية ، ومرحلة الطفولة ، فهى العمد الأساسية التى يقوم عليها مذهبه .

الطفولة

إن صح أن الحاضر وليد الماضى ، فعلينا أن نتتبع حياة الفرد منذ ولادته ، لنشهد المؤثرات المختلفة التى تصهر حياته ، ومهم – ونعنى يونج تلميذ فرويد – من يذهب مع الماضى إلى ما هو أبعد من زمن الولادة ، فيلتمس حياة الجنس البشرى فى العهد البدائى ، ويفترض أن الإنسان فى العصر الحاضر قد ورث عن أجداده الأولين كثيراً من النزعات والأفكار . وهذه نظرية لها كثير من الأنصار ، ولها ما يؤيدها من الوقائع والمشاهدات .

لا يميز الطفل عند ولادته بين نفسه وبين غيره ، فهو لا يعرف موضوعاً خارجياً يوجه نحوه قوته النفسية ، ولا نستطيع أن نقول إن الوليد « يحب » أمه ، فنحن لا ندرى ما يجرى فى ذهنه ، إنما الذى نستطيع أن نؤكده هو ما نشاهده من أن الوليد يميل إلى الأم بمقدار ما يجد فيها من عناية ورعاية ،

فهى ترضعه وتقوم على خدمته. وسواء أكانت الرضاعة طبيعية أم صناعية ، فهى أعظم وسيلة لإسكات صيحات الوليد . فالجوع داعية إلى الشعور بالألم والصياح ، والرضاعة سبيل إلى اللذة والارتياح . ووسيلة الرضاعة امتصاص الوليد ثدى أمه أو الثدى الصناعى ، حتى يصبح لذته الوحيدة الامتصاص ، يلتمسه فى كل وقت ويجده فى أعضاء جسمه ، وأقرب أعضاء جسمه إليه وأسهلها تناولا أصابع يديه. لا ندرى هل يشعر الطفل بهذه اللذة أو لا يشعر ، ولكن الراحة التى يبديها ، والتعبير المشاهد على وجهه ينبئان عن ارتياح. ويقول فرويد عالم التحليل النفسانى إن « الطفل يمص للامتصاص ويحقق عند ذلك لذة جنسية » وإن « امتصاص ثدى الأم يصبح بدء الحياة الجنسية » حتى إذا اهتدى الطفل إلى امتصاص أصبعه أو لسانه أو أى عضو آخر من جسمه شعر بلذتين : الأولى لذة نفسه ، والثانية لذة ذلك العضو من جسمه . وتصحب هذه اللذة الإنسان فى الشباب والكبر مع المظهر الجنسى البارز فى القبلة ، فهى إحياء لذكرى عهد الطفولة الأولى ، أو المرحلة الفمية كما يسميها فرويد . وفى ضوء هذا الرأى نستطيع أن نفسر ألوانا

من الأعمال التى ينهمك فيها الناس كأولئك الذين يقرضون أصابعهم أو يضعون أقلام الرصاص فى أفواههم ، أو لا يفتأون يديرون أشداقهم « بقزقزة » اللب .

ويلحق الطبيب النفسانى كارل أبراهام بهذه المرحلة الفمية مرحلة أخرى متأخرة عنها ، وذلك عندما تظهر الأسنان ، يسميها مرحلة التوحش حيث يميل الطفل إلى القضم والعض والتقطيع .

ليست اللذة الجنسية فى تلك المرحلة شخصية خالصة ، لأن الطفل يطلب شيئاً خارجيًّا ، ولكن صلة الطفل بهذا الشىء الخارجى غايتها التحطيم والإتلاف لمصلحته ، فموقف الطفل من الموضوعات الخارجية موقف عدائى ، أو على حد تعبير علماء التحليل النفسانى موقف « سادى » يشعر فيه الشخص بلذة إيقاع الألم بغيره وتعذيبه . هذا الموقف شديد الغرابة والتناقض : إذ يجمع بين الطلب والتلف ، ويمزج بين الحب والكراهية . وهذا ما جعلهم يقولون إن الحب يحمل بذور الكراهية ، وإن الكراهية تنطوى على جذور المحبة .

والشىء الوحيد الذى يتجه له الشخص بالمحبة الصحيحة

هو ذاته ، بمقدار ما يوحد الشخص بين نفسه وجسمه .

ويطلقون على حب الإنسان لنفسه اصطلاحاً خاصاً هو « النرجسية » أى عشق الذات أو العجب . والنرجسية نسبة إلى أسطورة يونانية تحدثنا أن « نارسيس » نظر إلى صورته فى ماء البحيرة فافتتن . . . ويبدأ عشق الإنسان لذاته بعد الفطام الذى يفصل بين الوليد وبين أمه ، فيفقد بذلك موضوع محبته ، ويضطر إلى التراجع على نفسه إلى أن يعثر فى مستقبل حياته على موضوع خارجى يصرف فيه حبه .

والمرحلة الثانية هى المرحلة الشرجية التى يحددها فرويد من الشهر السادس إلى الثامن عشر تقريباً . وفيها يجد الطفل لذة جنسية فى إخراج الفضلات . وفى هذه المرحلة يبدأ سلوك الطفل يتميز شيئاً فشيئاً وتبدو شخصيته ، وتنمو بذور حب العرض وحب النظر .

على أن الموضوع الرئيسى لمحبة الطفل فى تلك السن هو الأم ، لصلته الوثيقة بها ، وقد يحمل الحب لأبيه إذا كان يلاعبه ويلاطفه بين حين وآخر ، إلا أن الطفل لا يميز بين أمه وأبيه من الناحية الجنسية .

ويبدأ الانتباه إلى الفرق الجنسي بأن يتجه الذكر نحو الأنثى والعكس من الرابعة إلى السادسة . فى هذه المرحلة تظهر عقدة « أوديب » أى عشق الولد لأمه ، وعقدة « ألكترا » وهى عشق البنت لأبيها ، وذلك نسبة إلى قصة سوفوكليس فى الأدب اليونانى حيث تزوج أوديب من أمه دون علم منه .

وتنتهى عقدة أوديب فى سن السادسة أو السابعة .

وتظهر مرحلة جديدة تستمر إلى عهد البلوغ .

والقضاء على عقدة أوديب يرجع إلى النقص فى النمو الجسمانى ، الذى يمنع من الصلة الجنسية على وجهها الصحيح ، فلا يتيسر الاتصال الجنسى بالآخرين ، وخصوصاً بالأقارب الذين يعيش بينهم الطفل ، كما يرجع إلى الجهل بالمسائل الجنسية . وهذا كله يؤدى إلى تنقية عواطف المحبة من شوائب الصلات المادية . هذا هو عهد المحبة الصادقة بين الأحداث ذكوراً وإناثاً ، وهى محبة تشبه الأخوة .

فى هذه السن التى يدرك فيها الطفل أن الأمور الجنسية عيب لا يليق العلم به ، يضغط معرفته السابقة بها فى السنوات الأولى ، فينتهى إلى ما يسمى نسيان الطفولة ، حيث تمحى

من عقل الطفل الواعى كل ما يتصل بالصبا المبكر . ويحل محل ذلك بناء جديد من المعانى الخلقية والفنية ، كالاشمئزاز والطهر والعفاف والشفقة ، والانصراف إلى الفنون المختلفة كالموسيقى والتصوير والشعر ونحوها . هذا التحول من الشعور باللذة من المسائل الجنسية إلى تقدير القيم الخلقية والآثار الفنية هو ما يعبرون عنه بالتسامى .

لا مندوحة لنا من التعرض لآراء فرويد — غير محبذين أو منكرين — لأنها تشغل فى العصر الحاضر الأذهان ، أو هى — إن شئت — « موضة » العصر فى معرض الفكر .

يميز فرويد تماماً بين الغرائز الجنسية وبين الغرائز الذاتية ، ويجعل بين غرائز الذات والجنس توازياً وانسجاماً ، إذا اختل حدث صراع على حساب إحداها يؤدى إلى الكبت . وأن الأمراض النفسية هى نتيجة الصراع بين القوة الجنسية وبين « الأنا » . فإذا انتصرت القوة الجنسية اتخذت شكلا إيجابياً بإشباع الرغبات الجنسية ، وإذا انتصر الأنا اتخذ شكلا سلبياً بالابتعاد عن المسائل الجنسية .

ولا ينكر أحد وجود الغريزة الجنسية . ولكن فرويد — كما

رأينا – ينسب إليها كثيراً من المظاهر التى لا تمت إليها بصلة . ومن هنا نشأت الاعتراضات على نظريته . ويرد فرويد على الذين ينتقدونه ، بأننا واقعون تحت تأثير نفاق خفى نتيجة التعلم ومطالب المجتمع . فقد تعودنا الانصراف عن المسائل الجنسية ، وحرمنا على أنفسنا الحديث عنها ، كما أن المجتمع يرى فى إطلاق الغريزة الجنسية من عقالها ، وتحريرها من القيود ، أكبر الخطر على الثقافة والحضارة .

هذا كله معروف غير منكور ، أما الجديد الأصيل فى نظرية فرويد ، فهو القول بحياة جنسية للأطفال « وأن الشذوذ الجنسى ليس إلا مظهراً مجسما لحياة الطفل الجنسية » .

ونذكر هنا أهم الاعتراضات الموجهة إلى هذه النظرية ، وأولها أن إضافة الشعور بلذة جنسية إلى الوليد فيها كثير من الإسراف والغلو ، بل الجرأة ، ثم إن فرويد يقيم بناء نظريته على دراسة المرضى والشواذ ، ويتخذ من هؤلاء سبيلا إلى أحكام عامة يصدرها على سواد الناس وهم الأغلبية ، فيحكم بالخاص على العام ، وبالشاذ على السليم ، كما أنه يذهب إلى تفسير شخصية الإنسان فى ضوء القوة الجنسية ، ولو عكسنا لأصبنا

الحق ، فتصبح القوة الجنسية ومظاهرها إحدى وظائف الفرد ، وليست كل وظائفه .

ونترك جانباً هذه التفاصيل الطويلة عن نظرية التحليل النفسانى ، ونستبقى طريقة التحليل لأهميتها وصدقها . وجوهر الطريقة أن المظاهر الحاضرة عند الإنسان وليدة أحداث ماضية أهملت فى زوايا النسيان بعوامل الكبت والقمع والإخفاء . وأن هذه الأحداث المنسية لا تزال موجودة فى النفس تعمل وتحرك صاحبها ، فهى منسية فى الظاهر . موجودة فى الباطن ، خفية عن الشعور ، جلية فى اللاشعور . ونستطيع بالتحليل النفسانى أن نصل إلى معرفة هذه الأحداث الماضية . ومن الطبيعى أن صاحب هذه الأحداث هو الذى يستطيع أن يصل إليها ، وما وظيفة الطب النفسانى فى هذا الصدد إلا وظيفة المرشد إلى الطريق السديد .

وما دمنا فى معرض الكلام عن الحب والكراهية ، فسواء اتخذنا موقف أصحاب التحليل ، أو اتجاه الاجتماعيين ، أو نظرة علماء الحياة فلا بد لنا من سؤال أنفسنا عن أسرار الانعطاف وعلة الانصراف ، وذلك باصطناع طريقة التحليل

النفسانى ، لأن تفاعل المجتمع مع الفرد ، وموقف الفرد بإزاء المجتمع ، قصة طويلة تصهر الفرد خلال الحياة وتنمو به مع الأيام . ونعود إلى سؤال الفرد كيف تأثر بالناس ، فليس الإنسان جمادا مسلوب الشعور والعزم والإرادة والمزاج . إنما هو أرقى الكائنات الحية فكراً وأسماها عقلا ، لا يقبل إلا ما يوائم طباعه ويلائم مزاجه .

الشباب

يبدأ الشباب مع البلوغ ، فإذا بلغ الصبى الاحتلام ، والفتاة المراهقة تهيآ للإنسال . على أن دور البلوغ يعد تطوراً عظيما فى حياة الفرد ، تتغير فيه نظارته إلى الحياة والمجتمع . ويبدأ فى تحديد مكانه الصحيح فى الحياة الاجتماعية . وأهل كثير من الشعوب يقدسون هذه المرحلة ويحتفلون لها بكثير من الطقوس ، ويعدونها ميلاداً ثانيا . ومن التقاليد المعروفة فى مصر عند الطبقات الشعبية أن البنت إذا بلغت صبغوا يديها بالحناء .

والمعروف فى علم الطب أن البلوغ نتيجة مباشرة لنمو الغدد التناسلية التى تفرز إفرازاً ظاهراً تحقيقاً للنسل ، وتفرز إفرازاً باطناً يدفع إلى الرغبة الجنسية والقدرة على اتصال الذكر بالأنثى .

والتغيير الذى يحدث فى شخصية الشاب أكثر تعقيداً ، فهذا التطور الجديد من دواعى القلق والحيرة وإعمال الفكر ، ذلك

أن علامات البلوغ كالاحتلام عند الشاب . والحيض عند البنت ، كثيراً ما تكون باعثاً للخوف . والاعتقاد فى مرض أو شذوذ ، مما يدل على وجود تغيير نفسانى يسير جنباً إلى جنب مع التغيير الفسيولوجى .

وأول هذه التغييرات النفسانية الصراع بين الشاب وبين أترابه من الشبان وبين مربيه . وعلى الأخص والديه . ويختلف هذا الصراع فى درجة الظهور والخفاء فهو أكثر ظهوراً عند الذكور . ويحدثنا علماء التحليل أنه نتيجة ليقظة عقدة أوديب . وثورة الشاب على سلطة الآباء ، فهو صراع بين جيلين ، وبدء الانفصال عن الأسرة . أما البنت فإنها تظل فى الغالب وفية العش المنزلى .

ومن التغييرات المصاحبة للبلوغ فيض الذاتية وشدة الشعور بالنفس ، بما يشبه النرجسية ، أو عشق الذات الذى تحدثنا عنه فى سن سابقة . ويلاحظ أن الشاب ينظر فى نفسه ، ويبحث فيها ، ويرتاح إلى الشعور بذاته ، مما يبدو جلياً فى المذكرات الخاصة التى يكتبها أمثال هؤلاء فى هذا العهد . هذا العشق للذات أعلى فى مستواه من العشق السابق ، ويدفع إلى ازدراء

من سواه ، وكراهية غيره من الأتراب ، والتعالى عليهم تمييزاً لنفسه .

وتعد بعض عواطف المحبة امتداداً لما كان موجوداً فى الطفولة . كالصداقات بين الجنس الواحد التى تبلغ حد المحبة . كأن يحب الطفل الطفل ، كذلك نجد الشباب يحب الشباب ، والفتاة تحب الفتاة ، وهذا فى الحقيقة مظهر من مظاهر الضعف . وقلة الخبرة والحاجة إلى الاعتماد على الغير . وفى هذا نجد تفسير عشق الجنس لجنسه السائد كثيراً فى البالغين ذكوراً وإناثاً . وعند فرويد أن عشق الجنس مظهر لعشق الإنسان لنفسه تحول إلى شخص آخر من نوعه .

مهما يكن من شىء فالبالغ يسعى إلى شخص يصادقه ويفهمه ويعتمد عليه فى هذه الحال من الوحدة والضعف ، فهو يركن إلى شخص من جنسه لأن ما يكمله من الجنس الآخر لا يتيسر له فى هذه السن نظراً للموانع الاجتماعية المعروفة .

النضوج الجنسى

بعد انقضاء فترة الاضطراب فى مرحلة البلوغ يتم النضوج الجنسى الذى يتميز بالانصراف إلى شخص آخر يتركز فيه ويشبع فيه الحب والرغبة الجنسية . فالنضوج الجنسى يصاحبه طلب شخص المحبوب .

ويتم النضوج عند الذكور بسرعة شديدة ، بينما يظل كامناً عند الفتاة فترة قد تطول إلى حد ما نظراً إلى الظروف الاجتماعية .

وفى بعض الأحيان يتعلم الشاب المسألة الجنسية بعقد الصلة مع بنات الهوى .

هذه الصلة جنسية بحتة لا تشبع الرغبات النفسية ، وتختفى فيها شخصية الغانية والشاب . وهى إلى جانب ذلك صلة مؤقتة ليس فيها دوام أو مسئولية . ويفعلها الشاب فى الغالب كأنه يرغب فى إخفائها عن نفسه وعن الناس ، ويعقبها الندم . ثم هى عمل صبيانى . وأكثر بنات الهوى يبدين مظاهر صبيانية .

مهما يكن من شيء فالصلة بالعاهرات لا تخلق علاقة يترتب عليها مسئولية ، ولو قصر الشاب علاقته بعاهرة واحدة فقط فلا يترتب مع ذلك وحدة حقيقية ، بل وحدة ظاهرية ، لأن الاتحاد على أى الحالات مؤقت ، ولا يترتب عليه مسئولية اجتماعية أو جزاء أدبى .

والزواج بطبيعة الحال يمثل نهاية التطور الجنسى واستقرار الشخصية السليمة . وفى الزواج عنصران أساسيان : الحب والصلة الجنسية . والحب مقدم على الصلة الجنسية ، وهو أقوى عامل فى الاستقرار والدوام ، وفى ذلك يقول تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . فالزوجة تكمل الزوج ، يجد فيها ما ينشد من راحة بعد اضطراب ، وسكون بعد ثورة . أما المودة فهى الرابطة الحقة التى ينحل الزواج معها إذا انعدمت . وعلماء النفس المحدثون على هذا الرأى من تقديم المودة على الصلة الجنسية .

ويختلف الزواج عن مجرد الصلة بالمرأة تلك الصلة المؤقتة ، إذ له قيمة عامة ، نتيجة الإعلان فى الزواج ، أما الصلات الأخرى فإنها تجرى فى الخفاء . ثم يتحد الزوجان ويتخذان اسما واحداً ،

وهذا الاتحاد عند المسيحيين أشد منه عند المسلمين الذين يبيحون الطلاق . لهذا يقال « مدام فلان » . أى أن الزوجين أصبحا شيئاً واحداً ، بعد أن كانا شيئين . وبدل «أنا» و«أنت» يصبحان « نحن » ، وكلاهما ينصرف إلى رغبة واحدة هى « الولد » . وليس الولد ملك الأم وحدها ، أو الأب وحده ، بل هو ابنهما جميعاً ، وبذلك تنتهى حياة الزوجين إلى حب شخص واحد ، بل إلى المعيشة من أجله ، ذلك هو الولد .

حقيقة الحب

الحب والبغض من الأحوال النفسية الوجدانية التى يشق على المرء تحديد معناها . وإنما هما من المحسات التى يشعر بهما الإنسان ولا يستطيع القول أو التعبير الصحيح عن هذا الشعور . ولا شك أن الألفاظ تضيق عن المعانى ، وكثيراً ما تبعد عن الإبانة وتقصر عن الإيضاح . وقد طالب الفيلسوف برجسون فى العصر الحاضر بالانصراف عن استعمال الألفاظ الجوفاء إلى الصلة المباشرة بالأحوال النفسية ، ومع ذلك فلا بد لنا من التعبير ، ولا بد فى التعبير من الاعتماد على اللغة والألفاظ .

حاول القدماء تعريف الحب أو الهوى . قيل لبعضهم : ما العشق فقال : ارتياح فى الخلقة ، وفرح يجول فى الروح ، وسرور ينساب فى أجزاء القوى . وقال العينى : سألت أعرابياً عن الهوى فقال : هو أظهر من أن يخفى ، وأخفى من أن يرى ، كامن كمون النار فى الحجر . إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى .

وسئل أحدهم فقال : حركة النفس الفارغة .

وهذه كلها تعاريف بالاستعارة والكناية والتشبيه لا تصيب ماهية الحب ، بل تقربه إلى الذهن . وعند العرب أن الحب اسم مشترك يجمع ضروباً من ميل النفس كحب الولد والمال ، ثم الهوى ، ثم المودة ، ثم الصبابة ، ثم العشق ، ثم الوله والهيام والتتيم ، وهو أرفع درجات الحب لأنه التعبد .

وإذا رجعنا إلى لغتنا الدارجة التي يجرى فيها استعمال لفظتى الحب والبغض فقد نقصد بهما فى بعض الأحيان الرغبة فى الشيء أو الصدوف عنه . كما يعبر الطفل عن رغبته فى اللعب والحلوى بقوله : إنى أحب الحلوى ، وأكره الدواء ، أى يرغب فى الأولى ولا يريد الثانى .

وفى أحوال أخرى نقصد بالحب التضحية والإيثار والفناء فى سبيل شيء من الأشياء .

فهذا نوع يختلف عن سابقه ، فى الأول يطلب الإنسان الشيء لنفسه ومصلحته ولذته ، وفى الثانى يضحى الإنسان بنفسه فى سبيل هذا الشيء .

وفى ذلك قال الشاعر يصف ليلى كيف تؤثر نفسها .

أضن بليلى وهى غير سخية   وتبخل ليلى بالهوى واجود

وقال الأصمعى : غضب الفضل بن يحيى على جارية فبعثت إلىّ تسألنى أن أسترضيه ، فسألته فقال : الذنب ذنبها ، فقلت : وكيف موقعها من قلبك أيها الأمير . قال : أحسن موقع ، وإنما أريد بهذا الهجر تهذيبها . قلت : فاستعمل فيها وصية العباس بن الأحنف . قال : وما هى ؟ قلت :

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه
وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالم
فإنك إن لم تغفر الذنب فى الهوى
تفارق من تهوى وأنفك راغم

وفى حالة ثالثة نجد أن الحب يعنى اتحاد الطالب والمطلوب وفناء الاثنين معاً .

الحاجة إلى الحب

قال أحدهم لصاحبه : إنى سأحب . قال الثانى : ومن هى محبوبتك ؟ أجاب الأول : لم أجدها بعد ، ولكنى أشعر بهذا الحب المقبل .

يدل هذا الحوار على شيئين : الأول طلب المحبوب ، أو الرغبة فى الحب ، والثانى فراغ النفس من الحب والشعور بنقص فى الحياة النفسية لا بد من إشباعه .

وهناك من يشعر بالحاجة إلى البغض ، ولا تستريح نفسه إلا إذا حقق الكراهية فى شىء .

كان الحطيئة بذيئاً هجاء ، فالتمس ذات يوم إنساناً يهجوه فلم يجده ، وضاق عليه ذلك فأنشأ يقول :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلما بشر فما أدرى لمن أنا قائله

وجعل يدهور هذا البيت فى أشداقه ولا يرى إنساناً ، إذ اطلع فى ركن أو حوض فرأى وجهه فقال :

أرى لى وجها شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح قائله

وقيل فى هذا المعنى أى الرغبة فى الحب :

من عاش فى الدنيا بغير حبيب فحياته فيها حياة غريب

ما تنظر العينان أحسن منظر من طالب إلفا ومن مطلوب

ما كان فى حور الجنان لآدم لو لم تكن حواء من مرغوب

قد كان فى الفردوس يشكو وحدة فيها ولم يأنس بغير حبيب

ويذهب كثير من علماء النفس إلى أن الحاجة إلى الحب تعتمد على أساس عضوى فى الأعضاء التناسلية ، وذلك فيما يختص بالحب بين الذكر والأنثى . والنظرية السائدة الآن هى أن الهرمونات الجنسية التى تفرزها الغدد الخاصة بها تؤدى إلى تهييج المجموع العصبى .

أما فيما يختص بالموضوعات الأخرى التى يحبها الإنسان ، فمرجعها إلى شتى الغرائز ، فحب الطعام يرجع إلى الشعور الغريزى بطلب الأكل وإشباع الجوع ، والبخيل الذى يحب جمع المال تتأصل فيه غريزة الاقتناء . . . وهكذا .

ويرجع استمرار الحاجة إلى الحب الجنسى عند الإنسان إلى الحياة الاجتماعية ، فإذا كان الأساس فى الحب الجنسى يعتمد

على الغريزة ، فالشكل الذى يتخذه ، والحوافز التى تدفع إليه ، تثيرها الحياة الاجتماعية ، وما يجرى فيها من شتى الألوان الباعثة على إشعال الرغبة الجنسية ، كالحفلات والمراقص والمجتمعات الدائمة الازدحام بالرجل والمرأة، حيث تلبس فيها أبهى الملابس وتضع الأصباغ والعطور وأنواع الزينة وتسرف فى ذلك إسرافاً شديداً .

ويرى «بيير چانيه» ، أحد علماء النفس، أن الحاجة إلى الحب ترجع إلى « الفقر النفسى » فعنده « أن أحوال المحبين ، وما يصرحون به من عبارات لا تعم سائر الناس . ولا يشعر جميع المحبين بهذه الآثار الشديدة فى الحب ، ولعل أصحاب الحب الهادئ الرزين من ذوى الصحة الحسنة . أما الآخرون فهم ضعاف ، مرضى بأمراض نفسيه » .

هذه النظرة صحيحة إلى حد كبير . فقد رأينا عند الكلام عن البلوغ أن الشاب يشعر بضعف وانحطاط عند ظهور الاحتلام . وذلك لقلة خبرته وعدم نضوجه ، فيركن إلى غيره .

وكثيراً ما تبدو الحاجة إلى الحب فى الأحلام ، وفى أحلام اليقظة ، فى الصور والرموز والخيالات التى كثيراً ما تكون

صريحة صراحة تامة . وفى ظهور هذه الصور إشباع للحاجة الجنسية . ولا يكون هذا بطبيعة الحال إلا عند المحرومين من الحب . فالمرأة العانس أو الأرملة ، وكلاهما محروم من الزوج تشبعان رغبتهما فى الأحلام ، وقد ينتهى بهما الأمر إلى حالات مرضية ، وإلى الهذيان . وأبرز الحالات ما تعتقد فيها المرأة أنها محبوبة ومطلوبة من شخص منزلته أعلى من منزلتها الاجتماعية ، ويشغل مكان الصدارة . وكم من امرأة تحلم أنها زوجة الملك ، وكم من شاب يتصور أنه زوج الملكة .

على أن الذهاب مع بيير جانيه إلى اعتبار الحب من الحالات المرضية فيه شىء من الغلو والإسراف . وعندنا أن الإلحاح فى طلب الحب ، وعدم المقدرة على إشباعه ، هو الحالة المرضية .

اختيار المحبوب

احتار العلماء فى تفسير أسباب اختيار المحبوب . فلو أنعمت النظر لوجدت أسباباً تخالف المعقول . لهذا أضفوا على المسألة نوعاً من السحر والخرافة والحظ . وفى هذا يقول جورج دوماس — صاحب موسوعة علم النفس — « إن اختيار المحبوب يبدو غامضاً كجميع المسائل الفردية ، لأنه مستمد من الشخصية بأجمعها ، وليس من اليسير تمييز الأسباب العميقة لذلك » .

وزعم القدماء : أن الله تعالى خلق الأرواح كلها كهيئة كرية ثم قطعها أنصافاً فجعل فى كل جسد نصفاً ، فكل جسد لقى الجسد الذى فيه نصفه حصل بينهما عشق ، وتتفاوت حالها فى القوة والضعف على حسب رقة الطبائع . وزعم بعضهم : أن اتفاق الأرواح يرجع إلى اتفاق فى البروج الفلكية على مذهب الذين يعتقدون فى التنجيم .

ومن الغرائب التى تلفت النظر أولئك الذين يعشقون نساء

قبيحات أو العكس . قيل لرجل : اخترت فلانة مع قبحها ، فقال لو صح لذى الهوى اختيار لأختار أن لا يعشق . وقيل : العين إذا أبصرت الهوى عميت عن الاختيار .

وليس اختيار المحبوب عملا من أعمال العقل والتفكير ، لأنه لو كان كذلك لم يكن حباً ، إنه غير معقول ، ولكنه مفهوم ، ويمكن تفسيره لمن يستطيع ارتياد شخصية العاشق بشيء من الصناعة والفن . ولا يخرج السر فى اختيار المحبوب عن طبيعة الأحداث الماضية التى تشكل الحاضر ، أو عن انتقال فى العاطفة ، أو عن شيء جديد مبتكر زائد على الماضى وما انتقل إليه الماضى .

ويقولون إن هناك شيئاً جديداً فى الاختيار ، وقد ألجأهم إلى هذا القول الحب من أول نظرة كأنه ومضة البرق .

على أن مثل هذا الحب نادر الوقوع ، والغالب فى الناس حدوثه بعد إلف وصداقة . ومهما يكن من شيء فإنك لن تستطيع أن تخلق الحب . لأنه ليس شيئاً مرتقباً أو إرادة أو رغبة سابقة . واعلم أن الرغبة الجنسية ليست العامل الوحيد فى تحقيق الاختيار ، ولو كانت هى العامل الوحيد لاكتفى المرء

فى اختياره باعتبار جسم المرأة فقط دون روحها .

ويقول العلامة « بيرل » « إن الإلهام العاطفى فى الحب يحدث فى لحظات اللاشعور وعدم الاهتمام والشرود » . وهذا شبيه بما يقوله المتصوفة فى الحب الإلهى « إذا وجدت قلبى فقدت ربى ، وإذا فقدت قلبى وجدت ربى » ، ويقول شاعرهم :

وجودى أن أغيب عن الوجود   بما يبدو علىّ من الشهود

فى هذه اللحظة التى يضىء فيها القلب فيشرق بنور الحب ، لا يعتقد صاحب الحب أنه محبوب ، أو أنه قد يصبح محبوباً ، إنه ينظر إلى المحبوب نظرة الإعجاب والتقدير . وهنا يحدث ما يسميه ستاندال «التبلور» Cristallisation والتبلور عملية عقلية من شأنها أن تكشف فى موضوع الحب صفات جديدة من صفات الكمال . هذه الصفة المعنوية العقلية التى تسمو بالمحبوب ، وترفع من شأنه ، من أهم صفات النظر المشمول بالحب .

وإذا ما تم اختيار المحبوب ترتبت على ذلك نتائج من شأنها أن تغير المحبوب فى نظر الحبيب ، وأن تغير نظرة الحبيب إلى

نفسه ، وأن تغير نظرة الحبيب إلى العالم .

ذلك أننا لا نعرف الأشياء المحيطة بنا ، والناس الذين نتصل بهم ، على حقيقتهم ، بل خلال المزاج ، والنظر الشخصى . وصفات الناس الخلقية والجمالية من الأمور التقديرية التى لاتخضع للموازين الموضوعية الثابتة فقط ، بل يدخل فيها المعيار الشخصى . والمحبوب أو المكروه يصبح جزءاً من من حياة الشخص يملأ حياته ، ويشغل تفكيره وخياله . وهنا فرق بين شخصية تصبح « حية » فى أنفسنا ، وأخرى لا تعيش معنا . فالمحبوب يعيش مع الحبيب فى خياله ، فيصبح شخصية حية ، وتصبح صفات المحبوب حقيقة من الحقائق التى يعتقد فيها الحبيب ويؤمن بها .

يقال إن نسوة جلسن إلى مجنون ليلى فقلن له : ما الذى دعاك إلى أن أحللت بنفسك ما نرى من هوى ليلى ، وإنما هى امرأة من النساء ، هل لك فى أن تصرف هواك عنها إلى أحدنا فنساعفك ونجزيك بهواك ، ويرجع إليك ما عزب من عقلك وجسمك ؟ فقال لهن : لو قدرت على صرف الهوى عنها إليكن لصرفته عنها وعن كل أحد بعدها ، وعشت فى الناس

سوياً مستريحاً . فقلن له : ما أعجبك فيها . فقال : كل شيء رأيته وشاهدته وسمعته منها أعجبني ، والله ما رأيت منها شيء قط إلا كان في عيني حسنا وبقلبي علقاً . ولقد جهدت أن يقبح منها عندي شيء أو يسمج أو يعاب لأساو عنها فلم أجده .

فقلن له : فصفها لنا ، فأنشأ يقول :

بيضاء خالصة البياض كأنها قمر توسط جنح ليل مبرد
موسومة بالحسن ذات حواسد إن الجمال مظنة للحسد

وكما أن الحب بصير ، فهو أعمى ، لأنه يجعل الإنسان يغضى عن مساوئ المحبوب .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

وفي الحديث « حبك الشيء يعمى ويصم » . وقال معاوية : « لولا يزيد لأبصرت رشدى » .

وقال الشاعر :

يا عتب ما أنا عن فعالك بي أعمى ولكن الهوى أعمى

والنتيجة الثانية لاختيار المحبوب هو تغير الحبيب . لأن هذه التجربة الجديدة الحية تأخذ بيده إلى حياة عاطفية باعثة على الإلهام والثروة الفكرية ، وهذه العاطفة الجديدة تفضى إلى

التسامى ، والميل إلى إبراز مكنون النفس . كما أن الحب يضفى على الظروف المحيطة معانى شخصية جديدة . وللحب فى عالم الأخلاق صولة كبيرة ، فهو يثبت المرء على النظر فى القيم الخليقة والإيمان بها ، وعلى الأخص خلة الوفاء ، والثقة بالنفس .

كان ذو الرياستين يبعث أحداث أهله إلى شيخ يعلمهم الحكمة ، فقال لهم يوماً : هل فيكم عاشق ؟ قالوا : لا . قال : اعشقوا وإياكم والحرام ، فالعشق يفصح الفتى ويذكيه ، ويسخى البخيل ، ويبعث على التنظيف ، وتحسين الملبس . فلما انصرفوا قال لهم ذو الرياستين : ما استفدتم اليوم ؟ قالوا : كذا وكذا . قال : نعم . وإنما أخذه مما روى أن بهرام جور كان له ابن أهله للملك بعده ، وكان ساقط الهمة ردىء النفس سىء الخلق ، فغمه ذلك ، ووكل به من يعلمه ، فلم يكن يتعلم ، فقال معلمه : كنا نرجوه على حال فحدث منه ما أيأسنا وهو أنه عشق بنت المرزبان . فقال : الآن رجوت فلاحه . ثم دعا أبا الجارية فقال : إنى مستسر إليك سراً فلا يعدونك . اعلم أن ابنى عشق ابنتك ، وأريد أن

أزوجها منه ، فرها بأن تطمعه من غير أن يراها فإذا استحكم طمعه فيها أعلمته أنها راغبة عنه لقلة أدبه . ثم قال للمعلم خوفه بى ، وشجعه على مراسلة المرأة . ففعلت المرأة ما أمرت به . فقال الغلام فى نفسه : أنا أجتهد فى تحصيل ما أصل إليها به ، فأخذ فى التأدب وتعلم الشجاعة . ثم قال أبوه للمؤدب : شجعه على أن يرفع أمرها ، ويسألنى أن أزوجها منه ، ففعل ، فزوجها من ابنته .

وهكذا نرى أن الحب يبعث على الفخر والثقة والبطولة والشجاعة .

قيل : لو لم يكن فى العشق إلا أنه يشجع الجبان ، ويصفى الأذهان ، ويبعث حزم العاجز ، لكفاه شرفاً .

الحب شجع قلب كل فروقة والحب حمــل عاجزا فأطاقا

قال تولستوى فى قصة أنا كارينين « لم يكن فروتسكى ليبصر أو ليسمع شيئاً . لقد خيل إليه أنه أصبح بطلا ، لا لأنه اعتقد الوصول إلى قلب « أنا » ، بل لأن قوة العاطفة التى يحسها جعلته فخوراً » .

والأثر الثالث للاختيار الحبى ، هو تغير شعور الحبيب بالعالم .

٥٨

أحبت أعرابية شخصاً اسمه خالد فقالت :

فما أحسن الدنيا وعندى خالد وأقبحها لما تجهز غازيا

ذلك أن المحب قبل اختيار محبوبه يعيش فى العالم العملى ، إنه يعيش ولا يحيا . فكل الأشياء المحيطة به ، والناس الذين يتصل بهم أجزاء من هذا العالم . وهو يزن الأشياء بمقدار ما تحدث فيه من ألم أو لذة ، ومنفعة أو مضرة . فإذا أحب أصبح العالم أكثر جمالا وحركة وحياة .

الغزل

الغزل مجموع الحوادث والسلوك الذى يقع بين اختيار المحبوب والاتصال . فالاختيار هو البدء . والاتصال هو النهـــاية .

والغرض من الغزل التأثير فى المحبوب المختار ليستجيب بعواطفه وأعماله إلى الحبيب . وقد يكون الغرض هو التمتع بالمحبوب دون المبادلة . وهذا نادر الوقوع ، إذ لا يرتاح الحبيب إلا بالنوال والاتصال . وفى ذلك يقول الشاعر :

أنت الحسب ولكنى أعوذ به من أن أكون محباً غير محبوب

ذكر صاحب محاضرات الأدباء « قال بعضهم : وجدت بمكة شاباً مصفراً ناحلا فسألت عن حاله ، فقال : بليت بوصيفة فذهب رأس مالى فى ثمنها ونفقتها وليست تحبنى . فقلت : استمتع بها وعدها بعض نعيم الدنيا والآخرة . هل تحبك العافية ؟ هل تحبك الصحة ؟ هل يحبك المال ؟

هل تحبك الجنة ؟ فقال : لا . فقلت : أليس تحب كل ذلك ، وتتمتع به ، مع أنه لا يحبك ، فهبها بعض نعيم دنياك وآخرتك . فقام كالمسرور ، ورجع إليها ، وسألها فى سوء خلقها ، حتى رجع الله تعالى بقابها إليه ، وطاب عيشه معها » .

فالمبادلة فى الحب من المشاهدات الواقعة التى تؤيدها عاطفة الإنسان نحو الجماد والإنسان ، فكم من شخص يجعل قطته أو كلبه أو عصفوره ينطق ، فيجرى على لسانه كلاما يتخيله فى الوهم ، ويشعر معه أن ذلك الحيوان يتبادل معه المحبة . ثم انظر إلى الذين يشخصون الجماد ، فيجعلون من الزهور والحجر كائنات حية تحس وتعطف . والأطفال أوسع منا فى الخيال ، فهم ينفخون فى اللعب والدمى أرواحاً ، ويتوهمون فيها الحياة والإحساس . والذين يفعلون مثل ذلك من الكبار إنما يتراجعون إلى عهد الطفولة .

وإنما قصروا الغزل على المرأة ، والحقيقة أن الإنسان يتغزل فى كل شىء : فى طعامه وملبسه ومسكنه والطبيعة المحيطة به . ولكن الغزل فى المرأة أشهر ، لأنها من الغايات العظمى

التى تدور عليها الحياة . ومذهب فرويد يجعل من الغريزة الجنسية القوة الدافعة فى حياة الإنسان .

ومن أبرز مظاهر الغزل المحادثة، لأنها وسيلة مبادلة العاطفة. كان سبب عشق المجنون ليلى أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك . فمر بامرأة من قومه يقال لها كريمة . وعندها جماعة نسوة يتحدثن فيهن ليلى ، فأعجبهن كماله وجماله . فدعونه إلى النزول والحديث . فنزل وجعل يحدثهن ، وأمر عبدا له كان معه فعقر لهن ناقة . وظل يحدثهن بقية يومه ، فبينا هو كذلك إذ طلع عليهم فتى على بردة من برد الأعراب يقال له مُنازل يسوق معزى له . فلما رأينه أقبلن عليه ، وتركن المجنون ، فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أأعقر من جرا كريمة ناقتى ووصلى مفروش لوصل منازل

قال : فلما أصبح لبس حلته ، وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضاً لهن . فألفى ليلى قاعدة بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبها وهويته ، وعندها جويريات يتحدثن معها ، فوقف بهن وسلم ، فدعونه إلى النزول وقلن له : هل لك فى محادثة من

لا يشغله عنك منازل ولا غيره ؟ فقال : أى لعمرى . فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم هل لها عنده مثل ما له عندها ، فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره . وقد كان علق بقلبه مثل حبها إياه ، وشغفته واستملحها . فبينا هى تحدثه إذ أقبل فتى فى الحى فدعته وسارته سراراً طويلا ، ثم قالت له : انصرف . ونظرت إلى وجه المجنون قد تغير وامتقع لونه ، وشق عليه فعلها ، فأنشأ يقول :

كلانا مظهر للناس بغضاً　　وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون بما أردنا　　وفى القلبين ثمَّ هوى دفين

والنظر من وسائل الغزل ، ولكنه لا يرتفع إلى مرتبة المحادثة التى تنفذ إلى القلب وتفتح مغاليق الروح .

ويتقرب المحب إلى المحبوب بألوان من السلوك ، والأفعال ، ونخص بالذكر تقديم الهدايا . وهذا رمز مادى للبذل والتضحية . وقد جرت عادة الأزواج فى عهد الخطوبة ، أى فى الفترة التى تقع بين الاختيار والدخلة ، أن يقدم الزوج كثيراً من الهدايا اللائقة التى تفخر بها الزوجة وتتيه بها دلالا على أترابها .

ويقابل دلال المرأة غزل الرجل . وقد جعلتها سنة الطبيعة المطلوبة وهو الطالب . فهى تتزين وتتعطر ، وتبدى شيئاً من الصدود وغض البصر مع الحياء . والحياء من أبرز صفات الإناث .

وقد يكون دلال المرأة ، من إعراض وإقبال ، من قبيل المناورات التى ترمى إلى إيقاع الرجل فى أسر المرأة ، حتى يظل فى شوق دائم . وفى ذلك يقول المتنبي :

إذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

ويقول بيرل « إن الدلال دفاع حيوى ضد مخاطر الحب » . على أن هذا العبث الذى يبدأ دلالا ، كثيراً ما ينتهى بتأصل الحب .

والصد دفاع طبيعى استجابة لغريزة من أقوى غرائز النفس وهى غريزة السيطرة التى يجعل منها «أدلر» أساس السلوك الإنسانى كله ويفسر بها جميع تصرفاته ، كما يفعل فرويد بالقول بالغريزة الجنسية . ذلك أن الحب خضوع لا شك فى ذلك ، وكثير من الناس تأبى عليهم عزة النفس والأنفة الخضوع .

وفى هذا المعنى يقول أحمد بن يوسف :

تركتك والهجران لا عن ملالة ... ورددت يأسأمن إخائك فى صدرى
وألزمت نفسى من فراقك خطة ... حملت لها نفسى على مركب وعر
وإنى وإن رقت عليك ضمائرى ... فما قدر حبى أن أذل لها قدرى

ويقول «بيير جانيه» إن عقلية المحب تخضع لتأثير التسلط أو الفكرة الثابتة . « فطريقة تفكيره ، بأن يتمثل فى خياله على الدوام نفس الشيء ، ذلك التمثل المطلق المصحوب بالغفلة عن كل ما هو معقول نافع ، يبين لنا سمة هذه الأزمة ، فهى حالة تسلط » .

قد يكون للطبيب النفسانى بيير جانيه العذر فى وصف حالة الحب بالتسلط ، على الأخص إذا عرفنا أنه يصدر حكمه على الشواذ والمرضى بأمراض نفسية . فلاشك أن الحب إذا تمادى أعمى صاحبه عن المصلحة ، بل قد يؤدى إلى الجنون . وقصة مجنون ليلى أعظم دليل على ذلك . ولكن الحال مع سواد الناس مختلفة ، لأن التسلط يسوق إلى عمى البصيرة ، وفقدان الإرادة فقداناً تاماً ، مع الرغبة فى الحصول على المطلوب . والواقع من الأمر هو شعور المرء بسلطان الهوى ومحاولة مغالبته . والنتيجة إما استسلام وإما إحجام . فهناك صراع بين الفكر والعاطفة

والإرادة توضع فيها هذه الأمور فى كفتى ميزان .

روى صاحب الأغانى قال : كان للرشيد ثلاث جوار اشتد شغفه بهن فقال :

ملك الثلاث الآنسات عنانى وحللن من قلبي بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن فى عصيانى
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطانى

فتسلط الهوى يدفع إلى الاستسلام، وإلى الإقبال على تعهد المحبوب كما يتعهد البستانى الشجرة فى الحديقة : يرعاها ويسقيها ويحيطها بمختلف ألوان السياج لحمايتها . ويصبح المحبوب المطلوب الوحيد ، يعيش فى خيال المحب فى الليل والنهار ، حتى ينتهى الأمر بينهما إلى نوع من الصلة الدائمة ، وإلى الثبات العميق ، وإلى ما يسميه ستاندال « التبلور الثانى » .

فالتبلور الأول ينشأ مع ميلاد الحب الذى تحدثنا عنه فى الاختيار ،ويصحب ذلك ، كما وصف استاندال، الإعجاب ، ويقظة الرغبة من سباتها ، والأمل . وفى هذه الأحوال الثلاثة تتجمع الآراء الدقيقة حول موضوع العاطفة أى المحبوب ،

ويتذبذب الحكم من النفى إلى الإثبات ، ويتردد العزم بين الإقدام والإحجام . والمظهر العقلى لهذا التذبذب فى العاطفة هو الشك ، والشك يمنع ثبات أو تبلور الحب . إنها مرحلة شاقة يقطعها المرء فى كثير من المحنة ، حتى إذا اجتازها بسلام خرج الحب أقوى مما كان فى أول الأمر ، وأشد تأصلا ، إذ يميل المحب إلى تفسير إشارات المحبوب وسلوكه بما يتفق مع عاطفته .

وهذا تفسير الرضا فى حالة الغزل .

الاتحاد فى الحب

غاية الغزل ونهايته إنشاء علاقة بين الحبيب والمحبوب تنتهى بتوازن بينهما . وغاية كل حب هو تحقيق هذا التوازن السعيد . غير أن القسمة ليست متساوية بين المحب والمحبوب ، فأحدهما ينتهى بإخضاع الآخر ، الأول يريد التسلط ، والثانى يستسلم فى خضوع .

والأساس الحيوى لهذا التلاؤم المشترك هو تعارض الجنسين واختلافهما إلى ذكر وأنثى ، كل منهما يكمل الآخر .

وأول مظاهر الاتحاد رغبة المحب فى دوام حضور محبوبه . ولذلك كان الفراق والبعد مما يؤدى إلى توتر مؤلم وقلق شديد وهذا يوضح المنزلة التى يشغلها المحبوب فى نفس محبه . وآية ذلك دوام ذكره فى غيابه . وفى ذلك يقول شاعر الغزل عمر بن أبى ربيعة :

إذا طلعت شمس النهار ذكرتها

وأحدث ذكراها إذ الشمس تغرب

وقالت الخنساء فى نفس المعنى :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس

وحدث أبو الفرج فى أغانيه قال : « أراد الحطيئة سفراً فأتته امرأته وقد قدمت راحلة ليركب فقالت :

اذكر تحنننا إليك وشوقنا واذكر بناتك إنهن صغار

فقال : حطوا لا رحلت لسفر أبداً . »

ويصحب الوجود مع الحبيب سعادة قد تبلغ مرتبة التجلى . ولا نستطيع القول إن النفس تشعر بوجودها ، كما يحدث فى الحصول على الرغبة ، أو أنها تمحى كما يحدث فى ذروة المحبة . فهى حالة بين هذا وذاك .

أما المحو فمن صفات المغرقين فى الحب . والمتصوفة أشد الناس شعوراً بهذه الأحوال .

قال ابن الفارض فى تائيته المشهورة :

وفى المحو بعد الصحو لم أك غيرها

وذاتى بذاتى إذ تحلت تجلت

وهذا غزل فى الذات الإلهية .

وغاية المحب كما نرى أن ينتهى إلى الاتحاد بالحبيب ، أو الفناء فى الله . وهو غير الحلول ، إذ أن الحلول يجعل الله يحل فى الإنسان ، كما قال الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

والحلول لا ينفى الاتحاد ، بينما الاتحاد قد يتعارض مع الحلول . وفى ذلك يقول ابن الفارض :

متى حلت عن قولى أنا هى أو قل

وحاشا لمثلى أنها فىّ حلت

فاتحاد المحب بالمحبوب حتى يصبحا شيئاً واحداً سواء على رأى القائلين بالحلول أو بالاتحاد من مميزات التصوف . لأن الاتحاد أو الحلول يمكن أن يتم فى عالم الروح والمعانى ، ولا يمكن هذا الامتزاج مادياً .

لهذا يشبهون الحب بين شخصين ، إذا قوى واشتد ، بالحب فى التصوف . ومع ذلك فلا ينبغى أن نسرف فى تشبيه الحب الإنسانى بالحب الإلهى الذى يصدر عن الصوفية . لأن تجلى المتصوف يحمل فيما يبدو نوعاً من التعطيل للحياة النفسية ، كما

يشمل ضرباً من البلاهة .

ولعلنا إذا شبهنا الحب بنشوة السكران كان ذلك أدنى إلى الصواب . والمتصوفة يستعملون اصطلاح السكر أيضاً فى تشبيهاتهم .

مهما يكن من شىء فالحب الشديد يحوى لوناً من التعطيل فى الحياة النفسية على الأخص فى الإرادة والرغبة ، وذلك يرجع إلى أن الحب غاية فى نفسه ، وفيه إذا تمكن الكفاية عن كل شىء آخر .

والمظهر المادى الخاص بالحب هو الصلة الجنسية أو الوصال فى لغة الأدب والشعر . إنه اتحاد الجسمين بعد اتحاد النفسين . وهى تجربة أصيلة فى حياة الإنسان . وينبغى علينا أن ننظر بعين الاعتبار إلى الغاية التى تحرك الرغبة فى التقارب الجنسى . العلة الغائية فى هذه الصلة هى ظفر الرجل بالمرأة وسعادة الأنثى . كما أن الصلة الجنسية ضرورية لكمال الحب . والدليل على ذلك أن امتناعها يحدث ألماً قد ينتهى إلى قطيعة أو مرض نفسى . وليس من الضرورى أن تؤدى الصلة الجنسية وحدها إذا تحققت بين شخصين إلى المحبة ، كما يحدث بين زوجين متنافرين فى

الطباع أو كما يحدث فى الصلة بالعاهرات ، إذ لا تكون المرأة فى هذه الحالة إلا آلة لإشباع الرغبة ، أو المتعة فقط .

ومن مظاهر الحب التى أشار إليها ستاندال فى كتابه ظاهرة الألفة القلبية التى يبلغ فيها الاتحاد بين الحبيبين مبلغاً فيه من الثقة ، وحفظ السر وكتمانه ، والتفاهم التام ، الشىء الكثير .

وفى الخلوة بين المحبين ترتسم أبلغ آيات المحبة ، وقد تدوم الخلوة ساعات طويلة لا يشعران معها بمرور الزمن ، ويقطعان الوقت فى أشهى الحديث وأعذبه . وهنا لا نستطيع القول مع أصحاب المذهب البيولوجى إن لذة الحب فى الصلة الجنسية فقط ، بل هى فى الواقع أكثر من ذلك وأسمى . فالحب يدفع إلى اقتحام الأخطار . ويتخطى حدود المجتمع والمظاهر المادية المألوفة فى انتصار ، بل يذهب الحب إلى ما هو أبعد من ذلك ، إذ يتخطى حدود الذات ، متحدياً الغريزة الجنسية من جانب ، ومتحدياً رسوم المجتمع التى تقف فى سبيل الغريزة الجنسية من جانب آخر . وبيان ذلك أن الحب يحتفظ بكيان الشخصين كما هما فى ذاتهما ، فلا يسمح لهما بأن يكره أحدهما نفسه ، أو يكون مكروهاً ، ما دامت دنيا المحبة تظللهما .

نهاية الحب

الأصل فى الحب الشعور بالحرية ، فإذا أحس أحد الحبيبين بالإرغام والخضوع لسلطان آخر غير سلطان النفس فقد آذن الحب بالزوال .

وليس من الضرورى أن تتحول الصلة بين الحبيبين إلى هذه النهاية ، فقد تتطور النشوة الأولى إلى سعادة دائمة . وهذا أثر من آثار العادة . وذلك ما يحدث للزوجين اللذين يعيشان معاً ، إلى أن تهدأ ثورة العاطفة الجامحة ، وتصبح الصلة الجنسية بينهما رتيبة مستمرة، فإذا بهما يشعران بامتزاج كأنهما من دم واحد، وتسود بينهما عواطف الإيثار ، وإخلاص الشريك لشريكه ، هذا الإخلاص الذى يجرى مجرى الطبع مع طول العشرة .

هذا التحول الذى وصفناه خليق بأن يحل رابطة الحب . وإذا صح أن التفاهم بين الشريكين فى الحياة يكون تاماً ، إلا أن هذا التفاهم يختلف باختلاف المحبة . ونستطيع أن نلمح آثار هذه

النهاية التى تسير إلى غايتها سيراً بطيئاً فى سلوك الحبيبين . وينبغى أن نلفت النظر إلى أن الحب لا ينقسم بالتساوى بين الطرفين المتحابين ، فقد يزيد عند أحدهما عنه عند الآخر ، كما ينقلب فى أحوال كثيرة ولا يبقى ثابتاً .

وقد يتعطل الحب عند أحدهما ، وعندئذ لا يكون المحبوب موضوعاً يشغل الذهن ، بل يصبح فرداً كغيره من الأفراد . أما معايبه التى كان يضرب عنها صفحاً من قبل ، فإنها تصبح أمراً لا يطاق .

يقطع المحب صلته بالمحبوب ، ويصرف الحب إلى نفسه وذاته ، ثم يترك عالم الغرام ليدخل إلى الحياة العملية حيث يجد لذته فى الحياة الاجتماعية والأصدقاء والأشغال . إنه ينشد فى كل ذلك حرية نفسه من ربقة الحب الذى كان يخيم عليه .

وفى بعض الأحوال ينقلب الحب إلى درجة الاشمئزاز من المحبوبة ، ثم يحل الصد محل عدم الاهتمام بها . ومن مظاهر النفور الألم الذى يحدث من الاتصال الجسدى والروحى . بل مجرد المصافحة أو ملامسة يدها مما يؤدى إلى النفور ، كما يؤدى إليه سماع الحديث .

وهذه درجة اقل فى شدتها من الكراهية التى تؤدى إلى مظاهر السلوك الخارجى البارز فى الإشارة والنظرة بل السباب والعدوان ، وكثيراً ما تنتهى حياة الحب بين الزوجين ويحل بينهما الشقاق ، وعندئذ لا يرتاح أحدهما إلى وجود الآخر ، ويقل التبادل النفسى بينهما إلى درجة الانقطاع ، كما لو انقطع التيار الكهربائى الذى يصل بينهما . وتصبح الحياة المشتركة صمتاً عميقاً رهيباً ، لا تقطعه إلا بعض الكلمات التى يقتضيها الأدب . وهى بعض ألفاظ تنطوى على البرود والتهكم . على أن هذا الغطاء الرقيق من الأدب أو « الإتيكيت » الاجتماعى لا يلبث أن يتمزق فينفجر الزوجان فى غضب شديد ، وتكثر الفضائح العامة والتأنيب والتحقير .

وهناك صلة بين الاحتقار والكراهية . لأن الذى تبغضه تحتقر من شأنه ، وترميه بنظرات غريبة مملوءة بالوعيد والتهديد. وظهور هذه النوايا دليل على الميل إلى الانتقام . وكثيراً ما يرغب الذى يشعر بالاحتقار فى الفراق . وتجنح المرأة إلى الانتحار والهرب أكثر مما تلجأ إلى القتل . فإذا جنحت إلى التخلص ممن تبغضه لجأت إلى وسائل الإناث كالسم . أما الرجل فإنه يهجر منزله

ويرتمى فى أحضان الخمر ، ويلجأ إلى الشراب . ويسلك المكروه أحدى سبيلين : إما أن ينطوى على نفسه فى حزن وصمت ، وإما أن يجنح إلى الثأر الانتقام .

كلمة علم الحياة

العلم مشاهدات وتجارب وقوانين .

والعلم واقعي يذكر الحقائق مهما تكن مرة ، ولا يحفل بالأوهام والآمال .

والعلم لا يعرف القيم ، ولا يرفع من شأن الإنسان على غيره من الحيوان ، فهم جميعاً فى نظره كائنات حية تخضع فى وجودها لقوانين طبيعية .

ولا يشذ الأمر فى الحب والبغض عند العلماء عن سائر المظاهر الطبيعية ، وخلاصة رأيهم أن البغض يتصل كل الاتصال بالغضب وبغرائز الكفاح والمقاتلة فى الهجوم والدفاع ، مما هو لازم لحفظ حياة الفرد والأسرة والجماعة . وأن الحب ، ويقصدون الحب الجنسى ، يرجع إلى اختيار الذكر أنثاه ، مما هو مشاهد فى الكائنات الأولية ، وما هو أكثر وضوحاً عند ضروب الحيوان الراقية كالقردة إذ يتغلب الذكر القوى على

منافسيه . وتشتاق الأنثى إلى أكثر الذكور جاذبية .

هذا التفسير الحيوى يتصل اتصالا قوياً بنظرية التطور أو النشوء والارتقاء . فالاختيار الذى يتم بعد المنافسة الجنسية يؤكد « بقاء الأصلح » . إلى جانب ما يشاهد فى اختيار المحبوب من الخضوع لقانون « الانتخاب الطبيعى » .

وهكذا ننتهى إلى فلسفة بيولوجية لها دون شك طرافتها ، فالحب يرجع إلى الغريزة الجنسية ، وهذه بدورها ترجع إلى غريزة التناسل أو حفظ النوع ، والغرض من التناسل هو حفظ الحياة والاستمرار على النشوء والنماء . فالحب صدى الحياة الكلية فى نفوس الأفراد . إنه حب الحياة للحياة .

وجملة القول : الحب والكراهية يعبران فى حياة الإنسان عن النزعات الأساسية العميقة التى ترمى إلى حفظ الفرد والنوع .

ويجمل بنا أن نتتبع هذه الظاهرة الإنسانية منذ نشأتها الأولى فى أبسط الكائنات .

انقسام الخلية

تخضع حياة الكائن إلى قانون عام يقضى بأن يتقلب الكائن شيئاً فشيئاً فى سلسلة من الأدوار نشاهدها فى الحياة الفردية ، وتنتهى بالموت ، وهو فساد الجزء الأعظم فى ذاته ، فيصبح مادة غير حية ، ومع ذلك تستمر الحياة فى خلاياه التناسلية ، فى ظروف خاصة .

ومن الثابت علمياً حتى الآن أن الخلية أبسط عنصر حى . والخلية فى الحيوانات الدنيئة هى الكائن الفرد بأكمله . ونسيج الخلية يعرف بالبروتبلازما ، وهذه المادة لا تزال مجهولة حتى الآن . وأهم جزء فى الخلية هو النواة . وتتكاثر الكائنات وحيدة الخلايا ، وهى الحيوانات الدنيئة ، كما تتكاثر كل خلية داخلة فى تركيب الكائنات الراقية ، عن طريق الانقسام . ويحصل الانقسام بانشطار النواة إلى جزأين فى داخل الخلية ، ثم ينمو كل جزء منهما إلى أن يصبح خلية مستقلة . وبهذا تموت الخلية

الأولى أو تختفى ؛ ولكنها تحيا فى الخليتين الجديدتين ، من حيث إنها تكاثرت بالانقسام قبل موتها . إنها تحمل فى طياتها الحياة الجديدة وهى فى سبيل الموت .

وهنا نلمس الظاهرة الأساسية للزواج ، أى شيوع خليتين فى واحدة ، مما يؤدى إلى التناسل . وهذه الحقيقة المشتركة بين جميع الكائنات الحية ، ومنها الإنسان ، تثبت لنا أن الاستقرار فى الحياة ليس ممكناً إلا إذا اتحدت العناصر المختلفة التى تخضع لظروف متباينة بين حين وآخر .

وإذا حالت الموانع دون هذا الاتحاد ، بأن تستمر الحياة عن طريق التكاثر فقط ، أو اللقاح ، ترتب على ذلك إضعاف مستمر ، بل تدهور ينتهى باختفاء النوع الذى يتناسل على هذا النحو .

أما الكائنات الراقية فى المملكة النباتية والحيوانية فإنها تتعقد كما هو معروف . وذلك لأنها تتكون من خلايا كثيرة لا من خلية واحدة ، وكلما ازداد الكائن تعقداً كثرت الخلايا الداخلة فى تكوين أعضائه ، وتنوعت من جهة تركيبها الكيمائى والطبيعى ومن جهة شكلها العضوى ، ولكنها تؤلف فى اجتماعها كائناً

واحداً ، يؤدى كل عضو فيه عملا خاصاً ويحقق غرضاً معلوماً . وهكذا يتكون النبات من الأوراق والزهور والبراعم والفروع والجذوع إلى غير ذلك ، ويتكون الحيوان من الجلد ، والأمعاء والغدد ، والدم ، والعضلات ، والأعصاب ، والمخ ، وأعضاء الحس وما إلى ذلك . ولا يتم التناسل عند كثير من أنواع النبات وضروب الحيوان بطريق اللقاح بل بطريق الانقسام ، فبعض الشجر يتكاثر « بالعقلة » وبعض أنواع النمل التى لم تلقح تضع بيضاً يفقس ويصبح نملا يسعى ، ولكن أجياله المتعاقبة تنقرض إذا لم يخرج النسل عن طريق الزواج .

أما الحيوانات الراقية ، ونعنى بها ذوات السلسلة الفقرية ، وكذلك الإنسان ، فلا تتناسل بدون زواج . ومهما يكن من شيء ، فسواء تم التكاثر بالانقسام أم حصل التناسل باللقاح أو الزواج ، فهذا كله دليل على الاستمرار المتصل للحياة . فما هو الزواج ؟

الزواج

من الحقائق العامة السائدة فى جميع الكائنات التى تتناسل عن طريق الزواج ، أنها تتميز بأعضاء تختص بالتناسل والصلة الجنسية . وخلايا هذه الأعضاء الموجودة فى الغدد التناسلية ، تمتاز بخاصة التناسل بحيث تنشىء الكائن من جديد على صورة النوع الذى تندرج تحته ، وذلك عن طريق الزواج الذى تخرج فيه هذه الخلايا التناسلية فى ظروف خاصة . ولهذا صح أن نقول مع «فايسمان» ، فى مقالته الفلسفية ، « إن الخلايا الجنسية تسوق آباءها على الحياة ، فلا يفسد الموت فى الحقيقة إلا جزءاً من الفرد ، وهو ذلك الجزء الذى اختص وحده بالأهداف الفردية ، فكل فرد يعيش إذن فى أعقابه » .

ويبدأ التناسل بأن ينفذ الحيوان المنوى الذكر ، فى داخل البويضة التى تفرزها الأنثى ، فيتحدان فى خلية تناسلية واحدة ، تنمو حتى تصبح جنيناً .

فالطفل الذى يولد يخرج دائماً من أبوين ، مختلفين دون شك ، لا فى الجنس فقط ، أى أن أحدهما ذكر والآخر أنثى ، بل فى صفات أخرى كثيرة منها تتكون « شخصية » كل منهما ، وقد أثبتت المشاهدات والتجارب العلمية أن دور الأبوين فى تكوين البويضة الجديدة متساو . غير أن المولود الجديد هو جديد حقاً لأنه شخصية جديدة مختلفة عن أبويه . ولكنه من جهة أخرى يكتسب صفات أبويه التى تنحدر إليه بطريق الوراثة .

وعند ما يتكون الجنين فى بطن أمه تختص بعض الخلايا بتكوين الأعضاء التناسلية ؛ ولكنها فى صورتها المبكرة لا تتميز ، فلا تكون ذكراً ولا أنثى ، ثم تتشكل بعد ذلك فتميز الجنس ، بحيث يصبح للذكر أعضاء تناسلية مختلفة عن أعضاء الأنثى ، ويتبع ذلك فيما بعد المميزات الخاصة بالرجل كظهور اللحية ، والمميزات الخاصة بالمرأة كبروز النهدين .

نقول إن الأعضاء التناسلية هى التى تميز الجنس ، وتفصل بين الذكورة والأنوثة ، إذ يتبع عملية الخصى تغيير كامل فى مظهر الرجولة ، كما هو معروف عن « الخصيان » ، من نعومة

الصوت ، وزوال اللحية والشارب .

وتعد الأعضاء التناسلية وسيلة فقط لتحقيق الغاية من الزواج بين الذكر والأنثى ، وهذه الغاية هى نفاذ الحيوان المنوى الذكر فى بويضة الأنثى . ويمتاز الحيوان المنوى بالحركة ؛ على حين أن بويضة الأنثى تكون ساكنة وأكبر حجماً من خلية الذكر . ويتم اللقاح بأن يتحرك الحيوان المنوى — والحركة جزء من طبيعته كما ذكرنا — متجها نحو بويضة الأنثى ، فينفذ إلى داخل البروتبلازما . وحيث كانت كل خلية منهما مكونة من نواة فإن جدار الخلية يحتويهما معاً . ثم يقتسمان الحياة داخل الخلية ويتحدان ، ثم يفترقان إلى نواتين جديدتين يتكون منهما عناصر الذكر وعناصر الأنثى بالتساوى .

وهكذا نرى أن الزواج يقتضى اقتراب الخليتين الذكر والأنثى . والواقع هو أن خلية الذكر هى التى تنتقل إلى بويضة الأنثى . وهذه الحركة التى يمتاز بها الذكر تجعله يقوم بالدور الإيجابى ، على حين تختص خلية الأنثى بالدور السلبى . ويشاهد هذا بوضوح عند الحيوانات الدنيئة البسيطة التركيب . فإذا نظرنا إلى الحيوانات الراقية نجد الأمر معقداً بعض الشىء ،

لأنها تتركب من أعضاء مختلفة كثيرة معقدة ، وتحتاج الصلة الجنسية إلى انتقال الذكر إلى الأنثى ، وهما الجنسان المختلفان بالطبيعة . غير أن هذا الانتقال يحتاج فى الحيوان الراقى — وفى الإنسان بطبيعة الحال — إلى جهاز عصبى مركزى يتحكم فى حركة الحيوان ويوجهه . وهذا هو السر فى أن الصلة الجنسية تقتضى تعاون كثير من أعضاء الجسم وأجهزته ، كالجهاز العصبى ، وما يتصل به من أفعال منعكسة ، وتعاون ملكات عقلية راقية ، كالخيال والتفكير عند الإنسان .

وهذا هو السر كذلك فى تعقيد مسألة الحب عند الإنسان . والحب هو الشعور النفسانى الراقى الذى يصحب إقبال الرجل على المرأة فى سبيل تحقيق الصلة الجنسية . فالرجل يسعى أولا ، وقبل كل شىء ، إلى تهيئة الأسباب التى تؤدى إلى صلة الحيوان المنوى ببويضة الأنثى ، حتى إذا تمت تلك الصلة انتهى عمل الرجل الجنسى . أما الأنثى التى كان موقفها سلبياً ، فليست هذه الصلة الجنسية بالنسبة إليها إلا بداية شىء آخر أعظم خطراً وهو النسل وذلك عن طريق الحمل . قد لا تحمل بعض أنواع الحيوان كالأسماك ، بل تضع الأنثى البيض ثم يأتى الذكر

فيضع فوقه لقاحه ، فهو لا يتصل بإناث السمك ، ولكنه يلقح البيض الذى وضعته الأنثى . ولكن هذا النظام لا يسود سائر المملكة الحيوانية . ولا حاجة فى ظل هذا النظام إلى الحب الجنسى ولا حاجة كذلك إلى الأمومة ، وهى حب الأم لصغارها ، ما دامت صغار السمك تستطيع بعد فقسها مباشرة أن تعيش بمفردها فى الماء .

وتعيش أصداف البحر الذكور فى الصخور إلى جانب الأصداف الإناث . وعند ما تنضج الإفرازات الجنسية ، تخرج إلى البحر وتفرزها فى الماء ، وتتجه الحيوانات المنوية نحو بويضات الأنثى لتخصيبها ، بدافع الجاذبية الجنسية . ومن الواضح فى هذه الحالة أن ملايين عديدة من الإفرازات الجنسية تتبدد وتضيع هباء ، ومن الواضح كذلك أن هذا النوع من الحيوان ، وما يماثله من الأنواع ، لا يعرف الذكر الأنثى ، فلا تتولد بينهما أى عاطفة .

أما فى الحيوان الراقى فإن الأعضاء التناسلية الثانوية تتخذ شكلا خاصاً يميز الذكر عن الأنثى . ولا تُترك عملية اللقاح أو التناسل للصدفة ، إذ تلقى الحيوانات المنوية فى موضع خاص من

الأنثى مثل رحم المرأة فى الإنسان حيث يتسنى لهذه الحيوانات المنوية أن تنفذ فى البويضة . ولسنا ندرى الأصل الذى انحدرت منه هذه الخاصية ، فهى سر من الأسرار .

ويفسر «لودانتك» هذه الظاهرة ، نعنى اتصال الذكر بالأنثى لإيداع الإفرازات المنوية ، بأن بعض أنواع الحيوان لا تخرج إفرازاته المنوية بطبعها كما يحدث لأصداف البحر ، فتساعد الصلة بالجنس الآخر على تخليص الجسم من هذه الإفرازات . ولما كان تجمع الإفرازات الجنسية فى الجسم مؤلماً وضاراً ، فإن الذكر يسعى نحو الأنثى لينشد لديها الخلاص من هذه الإفرازات ، ولا يكون ذلك إلا إذا اتصل بها اتصالا مباشراً بطريق الأعضاء التناسلية . مهما يكن من شىء فإن عادة الجماع عند الحيوانات الثديية متناهية فى القدم ، وإنها كجميع العادات القديمة انتهت بالتأصل فى جهاز الكائن الحى ، وقد بقى فى وعى الحيوان من هذه العادة الموروثة الميل إلى الجماع وما يصحب ذلك من حركات تحقق الصلة الجنسية .

الحمل والرضاعة :

تنتهى مهمة الرجل عند اللقاح . وتبدأ مهمة المرأة من ذلك الوقت . ويكفى أن نلقى نظرة على المرأة التى ستصبح أما ، ونشهد التغييرات العميقة التى تؤثر فى جميع كيانها المتصل بحياة الجنين ، لنرى أن دور المرأة فى الحياة التناسلية أهم من دور الرجل ، وأكثر حيوية ، وأعظم قيمة .

وينمو الجنين فى بطن أمه تسعة أشهر ، يتغذى فى أثنائها من دم أمه ، فهو بضعة منها ، بل هو استمرار لحياة البويضة التى لقحت بالحيوان المنوى . وولادة الجنين هى أشق اللحظات بالنسبة للحامل ، وفيها كثير من الخطورة على حياتها . ولكن يعوض هذه الآلام فرح الأم العظيم وسعادتها عند سماع الصيحة الأولى للمولود ، إنها تزهو وتفخر لأنها ستهب الحياة الإنسانية فرداً جديداً ، تضمه إلى صدرها ، وتحمله بين ذراعيها ، وترضعه بثديها . . . مولود جديد ، ينسيها الألم الشديد .

من هو هذا المولود ؟ إنه هى ، لأنه بضعة منها ، وفلذة كبدها ، وليس هذا المولود من صنعها وحدها ، بل هو شركة

بينها وبين زوجها ، فالطفل استمرار لحياة الرجل والمرأة معاً . ولهذا كانت الصلة بين الذكر والأنثى محتومة فى سبيل هذه الحياة الجديدة .

رجل وامرأة وأطفال ، هم خلاصة الحياة فى بضعة كلمات .

وهبت المرأة الرجل نفسها وحبها من أجل هذا الطفل . ومن الطبيعى بعد ذلك أن تهب الطفل حبها وحنانها . وهنا تبدأ لحظة صراع بين حب المرأة لزوجها وحبها لطفلها .

والأم مسوقة بالغريزة إلى إرضاع طفلها ، كما أن المولود يميل بالفطرة إلى امتصاص ثدى أمه أى الرضاعة . وتستمر فترة الرضاعة عند الشعوب المتوحشة سنتين أو أكثر .

وإلى جانب حب الأم الغريزى لوليدها ، المستمد من دافع الفطرة المستقرة فى الوعى الإنسانى نحو بقاء النوع ، نجد أن حبها ينمو ويزيد مع القيام برضاعة الطفل . فالعاطفة تتكون مع ازدياد الصلة وتوثقها واختلاف مظاهر الأحداث المحيطة بموضوعها . ولا حاجة بنا إلى بيان ما فعلته المدنية الحديثة فى الدول المتحضرة من تغيير هذه الظاهرة الفطرية عند المرأة ، وهى الرضاعة . فقد ثبت أن مقدرة الأم على الرضاعة

قد نقصت بمقدار عظيم ، وتبين من دراسة العلماء القائمة على الإحصاءات الدقيقة الطويلة ، أن السبب فى ذلك يرجع إلى انتشار عادة تناول المسكرات فى الشعوب المتحضرة ، مما أدى مع الزمن والوراثة إلى ضعف الجسم . ولا ندرى أتفيد الرضاعة الصناعية الأطفال أم تضرهم فى مستقبل الأجيال . ومن مساوئ الحضارة الحديثة أيضاً أن كثيراً من الأمهات يخجلن من الظهور فى المجتمعات فى أثناء الحمل ، ويلبسن « المشدات » التى تجعل حجم البطن صغيراً . مع ما فى ذلك من أضرار بليغة بحياة الجنين وصحته . هؤلاء الأمهات يحببن أنفسهن أكثر من حبهن لأطفالهن . ولا ننكر أن الأثرة من طبيعة الكائن الحى ليعيش ، ولكن حب النفس إذا تعارض مع مصلحة المجتمع وفائدة النوع ، فينبغى التضحية بالنفس فى سبيل المجموع إذا لم يكن فى الإمكان التوفيق بين الأثرة والإيثـــار .

الرغبة الجنسية :

رأينا حتى الآن أن النسل هو قانون الطبيعة للإبقاء على

الحياة ، فالفرد يموت ولكنه ينجب خلفاً يعيش على صورته .
وقانون الحياه شديد الوضوح بالنسبة للكائنات التى تعيش عن طريق الانقسام . ولا ندرى السر فى أن الإنسان لا ينسل إلا عن طريق الزواج بين الرجل والمرأة ، وهو ما نعبر عنه بالصلة الجنسية . غير أننا نستطيع التأكيد والجزم بأن انقطاع حبل الزواج بين الناس عامة يؤدى قطعاً إلى فناء النوع الإنسانى واختفائه من على ظهر الأرض .

لهذا اقتضت حكمة الطبيعة إيداع جاذبية بين الجنسين ترمى فى النهاية إلى إنجاب الأولاد . هذه الجاذبية حقيقة لا شك فيها ، لأن أصل الطفل متركب من الحيوان المنوى الذكر ومن بويضة الأنثى ، وقد رأينا كيف يتحرك الحيوان المنوى فينفذ إلى البويضة ويتحد معها . ورأينا كذلك أن الأمر عند الإنسان معقد ، إذ تشترك عدة أجهزة أعلاها الجهاز العصبي الذى يحرك المرء بالإرادة فى توجيه الذكر نحو الأنثى للتقرب بين الجنسين ، حتى أصبح الإنسان وحدة نفسية تشتمل أجزاؤها على الفكر والشعور والإرادة والوجدان ، فهو يسعى إلى التناسل لا بقوة آلية بسيطة كما هو الحال فى الكائنات

الدنيئة ، بل يعمل بالفكر ، ويستنير بالشعور ، ويندفع بالإرادة ، ويمتلىء بالإحساس المرهف ، والعاطفة العميقة .
وهكذا نجد أن الرغبة فى التناسل ، التى كانت من خصائص خلية الذكر أو الأنثى فقط ، تشيع فى الجهاز العصبى بأكمله ، أى فى كيان الفرد من جميع نواحيه . فالرغبة الجنسية تصدر عن المرء عند البلوغ من الجهاز العصبى وتدفعه نحو الجنس الآخر أو تجذبه إليه . وهنا يبدأ طور جديد فى حياة الفرد ، فقد كان إلى وقت البلوغ لا يهتم إلا بشخصه ، ولا يحب إلا نفسه ، ولا يجد لذة إلا فيما يحفظ ذاته ، فإذا به ينعطف نحو الجنس الآخر ، ويؤثره على نفسه ، ويطلبه ويسعى إليه ، ويلتمس عنده لذة الحياة . إنها الرغبة الخفية أو الظاهرة للنسل التى تدفعه إلى ذلك . رغبة قوية ، وعاطفة شديدة ، وميل غريب يستولى على الفرد ويدفعه إلى الجنس الآخر ليلتصق به ، وينفذ إليه ، بل يتحد به . كأننا بالجهاز العصبى ، أو الفرد بأكمله قد وقف لحظة وعاد إلى مظهر الخلية الجنسية البسيطة التى لا هم لها إلا الاتحاد بخلية الجنس الآخر لتحيا من جديد .

ومشاهدات المملكة الحيوانية تؤيد ما نذهب إليه من وجود هذه الرغبة القوية فى التناسل أو هذه الجاذبية بين الجنسين . فالطير على الشجرة ، وذوات الأربع فى الغابة ، والحشرات على ظهر الأرض ، يسعى ذكورها نحو الإناث دائبة لا تعرف الكلال ، مستهينة بأنفسها ، وهى فى ذلك السعى تلجأ إلى الحيلة تارة ، وإلى الكياسة تارة أخرى ، وإلى العنف تارة ثالثة ، لا يلويها عن بلوغ قصدها شىء . ولا يقل شوق الأنثى حدة عن شوق الذكر . ولكنها تلتمس عادة أساليب أخرى هى الدلال والتمنع ، والتظاهر بالهرب . فأنثى الحيوان كالنساء اللائى قيل فيهن « يتمنعن وهن الراغبات » . وكلما كان الذكر كثير الحركة والنشاط ، جنحت الأنثى إلى هذا التمنع والدلال . وهذا هو الشأن فى العصافير التى يتكلف ذكورها مجهودا عظيما فى سبيل تحقيق أغراضها والوصول إلى الإناث . وعلى العكس من ذلك إذا كان الذكر ثقيل الحركة فإن الأنثى هى التى تقبل عليه لتستثيره ، أو على الأقل فإنها لا تبدى مقاومة أو تصنعا . والنتيجة فى حالتى التمنع والرضا واحدة ، نعنى تحقيق الصلة الجنسية المصحوبة بلذة ، والغرض منها النسل .

ولننظر إلى طوائف أخرى من الحيوان ، لعل هذه المشاهدات تفيدنا فى معرفة أسرار الحب عند الإنسان ، ففى خلية النحل نجد إلى جانب الملكة والنحل العامل مئات من الذكور (الدبابير) ، وعندما تطير الملكة وهى الأنثى الوحيدة طير الزواج ، يتبعها جميع الذكور فى الفضاء . ولا يصل إليها إلا واحد من بينهم فقط ، هو أشدهم قوة وأسرعهم طيرا ، وأكثرهم حركة . والغريب أنه فى نشوة الصلة الجنسية يترك أعضاءه التناسلية داخل جسم الملكة ثم يموت . وتصبح جميع الذكور عديمة الفائدة بعد ذلك . فيشرع النحل العامل فى فصل الخريف فى مهاجمة الذكور وقتلها . وهذا أيضاً هو الشأن فى الفراشة من نوع البومبيكس . فحينما تظهر تكون مزودة بجناحين قويين وألوان زاهية بديعة ، ولا يتركب جسمها إلا من قناة هضمية بسيطة لأن مدة حياتها قصيرة لا تحتاج فيها إلا إلى الغذاء اليسير فكل همها هو الحب وتظل الأنثى ساكنة هادئة فى الانتظار . ويميز الذكر الأنثى بطريق حاسة الشم ولو كانت على بعد عدة كيلو مترات ، فيسعى إليها طائراً خلال الأشجار والحقول . وليس للذكر

إلا غرض واحد هو الوصول إلى الأنثى . وأول من يصل إليها من الذكور يلقى بنفسه عليها ، ويظل بضعة ساعات يعانقها بجناحيه ويسعد معها بلحظات من اللذة العميقة . ثم يموت بعد ذلك مباشرة من الضعف المستمر والمجهود الشديد ويموت كذلك أترابه الذين كانوا ينافسونه بعد الطير الطويل ، والامتناع عن الطعام ، والإخفاق فى تحقيق غرضهم . أما الأنثى فإنها تسعى بعد اللقاح إلى النبات الأخضر الذى يوفر الحياة الطويلة للشرانق الجديدة التى تخلفها ثمرة لذلك الحب الجنسى ، إن صح القول بأن الحركات التى وصفناها تنطوى عند الحيوان على محبة . وتضع الأنثى عدداً هائلا من البيض الملقح على أوراق النبات ، ثم تموت بدورها ، مخلفة الحياة لأعقابها بعد أن حققت غرضها فى هذا الوجود .

وقد وصف عالم الحشرات «فابر» هذه المظاهر الجنسية بعد مشاهدات طويلة بما لا يخرج عما ذكرنا . وقد أثبت بالملاحظة أن الحب عند الحشرات الدنيئة يقتصر على تحقيق الرغبة الجنسية ثم يختفى بعد تحقيقها .

أما الحيوانات الراقية فإننا نشهد عاطفة — تطول أو تقصر —

بين الجنسين . ومع ذلك فمن الثابت أن اللحظة التى تتم فيها الصلة الجنسية هى لحظة تبلغ فيها العاطفة حد النشوة فتستولى على نفس الكائن بأسره . وفى غمار هذه النشوة ينسى الإنسان كل شىء ، ويرى الدنيا بعين الغريزة الجنسية إذ تبدو له المرأة فى أثواب علوية تحجب عن بصره جميع شرور الحقيقة ونقائصها. إنه يعتقد فى تلك اللحظات من اللذة أنها تدوم إلى الأبد ، ويعتقد فى السعادة الخالدة ، كأنه قد انتقل إلى فردوس النعيم ، ولكنه بعد أن يقضى وطره ، ويشبع الرغبة الجنسية ، يسدل الستار على ذلك المشهد ، وتهدأ النفس ، ويعود الإنسان إلى الحقيقة المجردة . تلك هى أوصاف الرغبة الجنسية فى جميع الكائنات المنقسمة إلى جنسين .

والأصل فى هذه الرغبة الجنسية الطبيعية يمتد إلى أزمنة بعيدة جداً لا يستطيع التاريخ أن يتبينها ، ولكنها استقرت بالوراثة فى باطن النفس . وإذا كانت شهوة الطعام أساس حفظ الحياة الفردية ، فإن الرغبة الجنسية هى أساس حفظ النوع ، ما دام النسل لايتم إلا بالصلة بين الجنسين . وتتحرك هذه الرغبة من جانب المراكز العصبية ، ومع ذلك فإن

كثيراً من الإحساسات تشترك في تحقيق الصلة الجنسية . مثال ذلك أن بعض أنواع الذباب لا تضع بيضها إلا بعد أن تشم رائحة الجثة . فإذا انتزع عنها عضو الشم توقفت عن أن تبيض .

أما عند الإنسان فمرجع الرغبة الجنسية إلى الجهاز العصبي ، ومنه ينعكس إلى الشعور بما يحويه من فكر وعاطفة وإرادة . وعلماء الحياة لا يفهمون ظاهرة الحب ، والرغبة الجنسية ، إلا بربطها بالجهاز العصبي . فالحب وما يتصل به يرجع إلى المراكز العصبية في المخ والمخيخ والنخاع الشوكي . فإذا تنبهت الرغبة الجنسية ، وتنبهت المراكز العصبية ، تنعكس الرغبة في الشعور عن طريق الانتباه ، ثم تتداعى المعاني في الذهن وترتبط بعضها ببعض ، وترتد بعد ذلك إما لتحقيق الصلة الجنسية ، وإما لوقفها والامتناع عنها .

الرغبة الجنسية عند الرجل .

يمثل الرجل العنصر الإيجابي في الصلة الجنسية ، ولهذا كانت الرغبة الجنسية عند الرجل أقوى منها عند المرأة . وهذه

الرغبة تنشأ فى نفسه من تلقاء ذاتها أى بالطبيعة . وهى ترجع إلى الدور الذى يلعبه الرجل فى النسل . وتظهر الرغبة الجنسية عند الرجل عند البلوغ حيث يلحظ تغيراً فى أعضائه التناسلية ، وعندئذ يطلب الجنس الآخر . والذى يحدث عند الحيوان أن الذكر يتأثر برؤية الأنثى . أما الإنسان فإن الذى يثير فيه الرغبة الجنسية أمور كثيرة ، تعدلت بسبب الحضارة الحديثة .

منها رؤية الأجزاء المحجوبة من الجسم . ذلك أن الإنسان يكسو نفسه بالملابس وبخاصة الأعضاء التناسلية . ولا ندرى كيف انحدرت إلينا هذه العادة ، ولكن مما لا شك فيه أن العرى هو الأصل فى المعيشة ، وأن الكساء من ابتكار الإنسان . ورؤية الأعضاء التناسلية عند المرأة ، التى تكون عادة محجوبة ، تثير الرغبة الجنسية . على حين أن رجال القبائل المتوحشة الذين يعيشون فى حالة عرى لا يستثيرهم رؤية الجسم العارى للمرأة . وإذا تحجبت المرأة حجاباً كاملا فإن رؤية أى جزء من أجزاء جسمها يكون باعثا للرغبة الجنسية ، مثل وجهها أو يدها . أما الشعوب التى تعيش فى سفور فلا يؤثر النظر إلى وجه المرأة المكشوف . غير أن الرغبة إذا كانت شديدة عند الرجل فإنه

يطلب أى امرأة ، جميلة كانت أم قبيحة ، شابة أم عجوز .

ومنها صحة الجسم ، لأن مما يثير الرغبة الجنسية مظاهر الصحة البادية على المرأة ، فالأعضاء المكتملة النمو ، والرائحة الطبيعية ، والصوت الجميل ، والجلد الرقيق ذو البشرة الموردة المريحة للنظر واللمس ، كل ذلك مما يثير الرجل ، وعلى العكس من ذلك إذا كانت المرأة مريضة ، صفراء ، مترهلة ، ذات رائحة كريهة ، فإنها تبعث على النفور ، مما يؤدى إلى منع الصلة الجنسية أو التخفيف من حدة الرغبة فيها .

ومنها أخيراً الأعضاء التناسلية ، من النظر إليها ، وشم رائحتها .

وعند ما يصل الحيوان إلى سن البلوغ ، وكذلك الإنسان البدائى بطبيعة الحال ، والإنسان المتحضر ، يحاول الفتى الاتصال بالفتاة اتصالا جنسياً ، وكثيراً ما يتحقق ذلك ، لأن الإنسان فى حالة المعيشة الطبيعية لا يوجد ما يحول دون تحقيق فطرته. ولكن الحضارة الحديثة ، بما فيها من تقاليد وعادات ناشئة عن الدين والمجتمع حرمت الصلة الجنسية إلا عن طريق الزواج ، وأخرت الزواج بعد البلوغ لأسباب اجتماعية وصحية واقتصادية .

هذا التأخير فى الزواج يؤدى إلى أحد أمور ثلاثة ، إما امتناع الفتى عن العلاقات الجنسية ، وإما مباشرتها مع البغايا أو بأى شكل آخر ، وإما استعمال العادة السرية ، وهذا كله يؤثر فى نفسيته تأثيراً كبيراً ، ويحول حبه وبغضه من الاتجاه السليم الطبيعي إلى اتجاهات منحرفة مريضة .

وتدفع الرغبة الجنسية عند الرجل إلى أمور ثلاثة ، الجرأة ، والغيرة ، والرغبة فى الأبناء .

وينشأ الإقدام عن الشعور بالقدرة الجنسية ، الذى يفيض على النفس نشوة السمو ، على حين أن الشعور بالضعف الجنسى يحطم الحياة النفسية .

وترجع الرغبة الجنسية إلى غريزة التناسل. ولولا خوف العواقب لاتصل الرجل بأكبر عدد من النساء ، وأنجب ما يشاء من الأبناء . وهذا مشاهد فى الشعوب المتأخرة التى تتعدد فيها الزوجات أو تأخذ بنظام التسرى . وكلما أنجب الرجل أولادا كلما سمت نفسه ، لشعوره بالكثرة ولذة السلطان بامتلاك عدد كبير من النساء والأبناء .

لهذا كانت الصلة الجنسية المحرمة لا تشبع إلا الرغبة الجنسية

فقط ، ولكنها تثبت هذا الإحساس الذى يضىء جوانب النفس ويغمرها بالحياة والقوة والسعادة .

أما الغيرة فإنها ميراث عن الأجداد وعن الحيوان منذ عصور مغرقة فى القدم ، كما يرى الأستاذ « فوريل » . والأصل فى الغيرة ناشىء عن القتال الوحشى للحصول على المرأة بالقوة ، حتى إذا ما أصبحت فى حوزته وجب عليه الدفاع عنها من عيون المنافسين . وكثيراً ما استمرت المعارك فى سبيل المرأة بعد حصول الرجل عليها . ومن هنا تعلم الحيوان الذكر — أو الرجل البدائى — أن يأخذ حذره من نظرات الذكور وحركاتهم ، وما يعقب ذلك من هجمات المنافسين عليه للاستيلاء على الأنثى .

والمشهور أن المرأة تمتاز بالغيرة ، وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد .

ويرى العالم النفسانى «أدلر» أن الغيرة تنشأ منذ الصغر بسبب إهمال الطفل ، ومراعاة الآباء لأحد الأطفال أكثر من الآخرين . ويصحب هذا الشعور بالإهمال والغيرة الطفل حتى بعد أن يكبر ، ويتخذ أشكالا كثيرة .

وعنده أن إهمال الطفل وهو صغير وعدم عناية آبائه به هو الدافع إلى ظهور البغض فيشب الطفل على كراهية الناس والعالم

الرغبة الجنسية عند المرأة :

أهم ما يتصل بالرغبة الجنسية عند المرأة الحب ، والموقف السلبي ، والغيرة ، والدلال ، وحب الأبناء . وأبرز هذه الخلال جميعاً الحب فهو يلعب دوراً عظيما فى عقلها أكثر من الرجل فالحب عندها هو غاية الحياة ، بدونه تنحل طبيعتها ، ولا تكون امرأة سوية .

وإذا حدث ما يمنع تحقيق رغبات المرأة الجنسية ، خصوصاً إذا تأخر زواجها واختفى الحب القائم على الأساس الجنسى وهو حب المرأة للرجل انصرف الحب إلى إحدى جهتين : الجهة الأولى لا تشعر بها ، ولا تعرف علتها ، وهى إبدال حبها الرجل بحب الأشياء المحيطة بها ، كالقطة فى المنزل ، والدجاج أو الكلب ، أو الأشياء المختلفة التى تشغل بها نفسها داخل الدار ، وكل ذلك انحراف عن الحب الجنسى إلى موضوع آخر يحل محله. والجهة الأخرى تصرف إليها حبها عن

شعور وتفكير ، كالفن والأدب والاشتراك فى الجمعيات الخيرية والعطف على البؤساء والمحتاجين . وحب الخير والفضيلة ، وحب الفن والجمال لا يقوم إلا على ثقافة واسعة وبصر بشئون الحياة والمجتمع . فالمرأة تجد فى محبة هذه الأشياء كلها ، سواء أكانت صادرة عن شعور أم لا شعور ، ما يملأ نفسها ويعوضها ما فقدته من حب الرجل . والشائع عند العوانس هو انصراف المحبة عندهن إلى الصداقة من الأهل أو الأغراب ، رجالا أم نساءا ، وهو هوى عذرى يملأ النفس ويعوض شيئاً مما فقدته ، ويؤدى إلى تحسين حالتها النفسية نوعاً ما . ومع ذلك فهذا اللون من الحب أو الصداقة بما فيه من إخلاص عميق ، لا يحل تماماً محل الحب الجنسى ، وكثيراً ما تنتهى إلى حالة من التشاؤم والحزن الدائم ، خصوصاً إذا فقدت أحد هؤلاء الذين تحبهم ، وكانت تجد فى صحبتهم السلوى والارتياح .

وحزن الزوجة على فقد زوجها أو ابنها أعنف من فقد العانس صديقها أو صديقتها ، وهذا راجع إلى أن الحب عند المرأة هو الأصل وأن الرغبة الجنسية فرع منها . والحب عند الفتاة بعد البلوغ مزيج من الإعجاب بالرجل وإقدامه ومنزلته ،

والحاجة إلى المودة والملاطفة والأمومة . إنها تريد الخضوع للرجل ، وخضوعها مستمد من الدور السابي الذى تلعبه الأنثى فى الحياة . وإذا استطاع الرجل أن يغزو قلب المرأة وأن يخضعها كما يحدث فى التنويم المغناطيسى ، فإنها تمتلىء بنشوة عجيبة تنخلع لها نفسها فتتحطم إرادتها وفكرها ، ويسلس قيادها ، وتفقد مقاومتها ، وتتبع الرجل .

وجهل الرجال عادة بطبائع المرأة ونفسيتها ، خصوصاً هذا القانون العلمى الذى ذكرناه من أن المرأة فى حاجة إلى الحب أولا ، فى حين أن الرغبة الجنسية تأتى فى المحل الثانى ، هذا الجهل يؤدى إلى عدم إشباع رغبة المرأة ، فإما أن تسكت على مضض وتعيش فى انكسار ، وإما أن تحملها الثورة على إعلان سخطها وبغضها ، فينتهى الأمر بالبيوت إلى الانهيار وإلى انقطاع حبل الزواج .

أما الرجل فتحمله الشهوة البهيمية على إشباع رغبته الجنسية معتقداً أن أداءه هذه المهمة المادية يحقق للمرأة اللذة التى يحسها هو ، وينسى فى غمار ذلك أن يفيض على المرأة بالعطف والمودة ، والحديث الممتع ، والمداعبة اللطيفة . وقد

ترضخ المرأة حتى لا تؤذى شعور الرجل .

الأمومة :

روى أحد الأطباء المشتغلين بالتحليل النفسانى قصة تؤيد ما نذهب إليه ، وهو أن حب الأبناء يزيد فى حب الزوجة لزوجها . وخلاصة القصة أن الزوجة أرغمت على الزواج من شخص لا تحس نحوه ميلا أو حبًّا ، ولما تم الزواج رغبت فى التخلص من زوجها ، فكانت تتمنى موته ، بل تعلن له هذه الأمنية ، ثم دار الزمان وأصبح للمرأة بضعة أطفال من زوجها ، وفى أحد الأيام قال الزوج لزوجته : « ألا تتمنين موتى كما كنت تتمنين فى أول الأمر » فأجابت المرأة : كلا إن الأطفال فى حاجة إليك . فهى تريد زوجها ، لا لنفسها ، بل من أجل أطفالها .

والأمومة تلازم الحب الجنسى ملازمة وثيقة ، فالأم التى لا تحب أبناءها هى أم ثائرة على الطبيعة ، خارجة عليها ، والرجل الذى لا يدرك رغبة المرأة فى الأمومة ويحترم هذه الرغبة ، ليس جديرا بحب زوجته . والغريب أن بعض الرجال

تحملهم الأنانية على الغيرة من الزوجة التى تصرف بعض حبها إلى الأطفال . وفى بعض الأحيان نرى بعض الآباء يحبون أبناءهم حباً أعنف وأقوى من محبة الأم لهم . ولكن هذه الأحوال تعد قليلة بالنسبة إلى القانون الطبيعى العام ، وهو أن الأم تحب أبناءها أكثر من حب الأب لهم .

ومن أجمل الظلال المستمدة من الحب وأكثرها اتصالاً بالطبيعة ، الفرح الذى يحس به الأبوان عند ميلاد الطفل ، وهو فرح يؤدى إلى ربط العلاقة الزوجيـــة برابطة وثيقة من المودة ، ويعين الزوجين على مغالبة الصراع القائم بين شخصيتهما ، ويعمل على السمو بالعاطفة المتبادلة بينهما ، ومرجع ذلك كله إلى أن مولد الأبناء استجابة لازمة للغرض الطبيعى من الزواج .

مهما يكن من شىء فإن نصيب الأم من محبة ابنها هو نصيب الأسد . فالمرأة الصادقة الأنوثة تنتشى فى حالة الحمل ، وتزيد نشوتها كلما تقدم حتى إذا زالت آلام الوضع امتلأت سعادة وحناناً وفخراً ، حين تسمع الصيحات الأولى للمولود . وليس هذا الحب الأموى فى الحقيقة إلا نزعة غريزية تتجه نحو الرضيع

الحديث الولادة الذى يطلب حقاً طبيعياً لا يستطيع أن يعبر عنه ، هو حق الرعاية الدائمة ، والعناية الدقيقة من أمه . فما أعظم الفرح الذى يظلل الأم حين تعنى بنفسها بمولودها وما أقبح وأشق الأمهات اللائى يهملن أطفالهن دون حاجة ماسة فى أيدى الخدم والمرضعات ، باسم الحضارة والمدنية والتقدم ، وما ذلك إلا التدهور والتأخر .

الأمومة هى — دون شك — أهم مشتقات الغريزة الجنسية عند المرأة ، وكثيراً ما ينقلب حب الأم إلى ضعف بإزاء أبنائها ، فتحملها هذه العاطفة على المغالاة فى تقدير صفات الابن ، والتماس المسوغات لعيوبه وأخطائه . وضعف الأمومة كثيراً ما يؤذى الأطفال ، ويضرهم فى مستقبل حياتهم أعظم الضرر . وأكبر الظن أن لين الأم وضعفها وتهاونها من الصفات الموروثة ، فإذا أضيف إلى عامل الضعف الوراثى انغماس الأم فى الترف ، وانعدام الثقافة ، والكسل وكثرة الأطفال . . . وما إلى ذلك زاد ضعفها ضعفا . والسبيل إلى علاج هذه الظاهرة المتصلة بالأمومة هو تثقيف الأم ثقافة نفسية وخلقية من شأنها أن تبنى الشخصية القوية والخلق السليم ، كما ينبغى أن تشغل الأم

نفسها بالعمل المثمر .

الغيرة والدلال :

غيرة المرأة أشد عنفاً من غيرة الرجل ، وهى غيرة فطرية تثابر عليها المرأة وتظهر فى ثوب الفضائح العامة والمعاكسات والمضايقات الخفية . وإذا كانت الغيرة تحمل الرجل على امتشاق الحسام ، أو حمل السلاح والضرب بالنار ليقتل منافسه ، فإن المرأة تصخب وتثور وتحدث فضيحة مسموعة ، أو تلجأ إلى حيل النساء والقتل بالسم . المرأة المتوحشة التى تملؤها الغيرة تعض أنف حسادها بأسنانها ، على حين أن المرأة المتحضرة تلقى حامض الكبريتيك على وجه من تغير منها . ولا يخفى أن غرض المرأة البدائية والمتحضرة واحد ، فهو التقبيح ، وإن اختلفت الوسائل .

والدلال من خصائص المرأة ومن أكثرها اتصالاً بالحب . فموقفها السلبى فى الحياة الجنسية ، وحاجتها إلى الأمومة ، يدفعانها إلى الرغبة فى اجتذاب الرجل والحصول على إعجابه . وإنك لتجد المرأة تستغل رقتها وجمالها الطبيعيين ، وهما صفتان

ملازمتان للنساء ، فى اجتذاب الرجل ، كما تستغلهما فى الزهو على غيرها من النساء . إن المرأة تعنى العناية كلها بتجميل نفسها لتزيد فى حسن مظهرها حتى لينصرف جميع تفكيرها إلى الزينة والعطر ، وتصفيف الشعر ، والأناقة فى الملبس ، وما إلى ذلك .

ويرجع بعض العلماء هذه الألوان من الزينة المصنوعة التى يلجأ إليها النساء المتحضرات إلى ما ورثته المرأة من عقائد البدائيين عن الطواطم التى ترجع بدورها إلى عقائد دينية خرافية ، كالأساور والحلقان والخواتم والعقود . هذه العادات كلها مشتقة من الرغبات الجنسية أى الرغبة فى أن تحوز المرأة إعجاب الرجل .

النهاية

وكادت عين صاحبنا أن تغمض ، أو أراد لها ذلك ، فما عادت به حاجة إلى معرفة جديدة ، ولا شوق إلى حب أو بغض .

فقد عرف منهما ألواناً ، وتقلب فى سائر المراتب التى صورها العلماء والأدباء . وسعى إلى نصفه الآخر ، فانشقا عن الولد ، وتمت بذلك رسالة النوع الأزلى .

لو اطلعت على نجواه فى صلاته لسمعته يقول :

رب لم وهبتنى الشعور ، وميزتنى عن سائر الكائنات .

إنى لأرى الأحياء سعيدة ناعمة ما عدا الإنسان .

لقد طلبت الوصول على أجنحة الحب حتى بلغت الفناء .

كنت سعيداً فى سلوك الطريق واليوم لا سعادة ولا شقاء .

فلا حب يسلى ولا بغض يسرى كأن الدنيا هباء .

اقرأ فى هذه المجموعة

أحلام شهرزاد	د . طه حسين
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى

غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج
طاغور	د . جميل جبر
طرائف من التاريخ	مصطفى الشهابى
تيمورلنك	محمد محمد فياض
شيخ التكية	محمد عبده عزام
المدينة المسحورة	سيد قطب

رقم الإيداع	١٩٩١ / ٨٣٢٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3481-8

١ / ٨٦ / ٦٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

ترى ما السر الأعظم فى تحريك البشر إلى ما يعملون؟! إنه الحب والكراهية.

لقد خلق الله لنا الشعور وميّزنا به عن سائر الكائنات.. فهل أشقى الإنسان نفسه بمشاعر الحب والكراهية؟!

تقدم لك «اقرأ» إجابة عن هذا السؤال بين صفحات هذا الكتاب الطريف المملوء بقصص وحكايات أغرب من الخيال.

٤٠٠٨٩٨/٠٢

